

الفصل الأول

مفهوم النقوى

obeikandi.com

يقصد بهذا الفصل دراسة مواضع لفظة التقوى في القرآن الكريم، وتبيين علاقة هذه المواضع بعضها ببعض، وما قصد إليه القرآن الكريم من معانٍ وإرشادات ينبغى على المؤمن فهمها والالتزام بها. لزم لذلك أن نقدم تعريف التقوى في كلام أهل اللغة، ثم نشرع في تعريف التقوى في الشرع، ثم إحصاء لمادة التقوى في القرآن الكريم، وقد جعلنا هذا الفصل في عشرة مطالب:

المطلب الأول: مادة التقوى ومعناها.

المطلب الثاني: صور المادة إحصائياً.

المطلب الثالث: معنى التقوى في الشرع وتفسير النصوص والربط بينها.

المطلب الرابع: ولكن يناله التقوى منكم.

المطلب الخامس: محل التقوى.

المطلب السادس: لباس التقوى.

المطلب السابع: كلمة التقوى.

المطلب الثامن: خير الزاد التقوى.

المطلب التاسع: بقية مواضع التقوى.

المطلب العاشر: التقوى أساس قبول العمل.

المطلب الأول مادة التقوى ومعناها

قال الراغب الأصبهاني في مادة «وقى»: «الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، قال تعالى: ﴿وَوَقَلَهُمَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]. والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارةً تقوى، والتقوى خوفاً، حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه، والمقتضى بمقتضاه»^(١).

قال في اللسان^(٢): «وقى وقاه الله وقياً»، ووقاية: صانه، ووقيت الشيء أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى. وفي الحديث: «فوقى أحدكم وجهه النار». وهذا اللفظ خبر أريد به الأمر، أى ليق أحدكم وجهه النار بالطاعة والصدقة. ويقال: وقاك الله شر فلان وقاية. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، أى: دافع. والتوقية: الكلاءة والحفظ. وقد توقيت واتقيت الشيء: حذرتة. والاسم: التقوى.

(1) الراغب الأصبهاني «المفردات في غريب القرآن»، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، مادة (وقى)، (ص ٨٣٣).

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهاني أديب، لغوى، حكيم، مفسر، له تصانيف كثيرة منها تحقيق البيان في تأويل القرآن وتوفى - رحمه الله - عام ٥٠٢هـ. انظر حاجي خليفة «كشف الظنون»، (ص ١٧٧٣).

(2) ابن منظور «لسان العرب»، تحقيق عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى، ط. دار المعارف، القاهرة، مادة (وقى).

وابن منظور هو محمد بن مكرم بن على، ولد بمصر عام ٦٣٠هـ، أديب، لغوى، ناظم مشارك في علوم، توفى بمصر عام ٧١١هـ، من مؤلفاته «لسان العرب». انظر ابن حجر «الدرر الكامنة»، (٤/ ٢٦٢-٢٦٤).

التاء بدل الواو، والواو من الياء، وفي التنزيل: ﴿وَأَتَنَّهُمْ تَقْوَنُهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، أى: جزاء تقواهم، وقيل: معناه ألهمهم تقواهم.

والتقى: المتقى. ورجل تقى من قوم أتقياء وتُقواء، والأخيرة نادرة. قال أبو بكر: معناه موق نفسه من العذاب والمعاصى بالعمل الصالح.

قال النحويون: الأصل وَقَوَّى. فأبدلوا من الواو الأولى تاء كما قالوا متزر، والأصل موتزر، وأبدلوا من الواو الثانية ياء وأدغموها في الياء التي بعدها وكسروا القاف لتصبح الياء. قال أبو بكر: والاختيار عندي في تقى أنه من الفعل فاعيل، فأدغموا الياء الأولى في الثانية، الدليل على ذلك جمعهم إياه أتقياء، كما قالوا ولي وأولياء، وذلك أقرب لعدم ارتكاب الحذف والقلب.

المطلب الثاني ترتيب المادة إحصائياً

رتبت مادة التقوى إحصائياً على ترتيب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، وذلك للاستعانة بها في فصول البحث، مع التعليق على كل مادة من هذه المواد بما يناسبها، وذكر المكي والمدني للاستفادة منها في فهم مواضعها وسياقها، وقد اختصرت الإحصاء لمجىء الآيات في موضعها:

أولاً : لفظة التقوى:

وهي محل البحث وردت خمس عشرة مرة، وقد ازدحمت بالصور البيانية على ما سنوضح بعد ذلك - إن شاء الله تعالى.

وهذه أمثلة لتلك المواضع:

١. ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة: ١٩٧].
٢. ﴿ وَلبَّاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].
٣. ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمَّ لِلتَّقْوَى ﴾ [الحجرات: ٣].

ثانياً: الأمر بالتقوى:

جاء الأمر بالتقوى في خمسة وثمانين موضعاً، منها تسعة وستون موضعاً بلفظ ﴿ اتَّقُوا ﴾، أى الأمر لجماعة المخاطبين، وواحدة بالفاء ﴿ فَلْيَتَّقُوا ﴾، وثلاثة مواضع للمفرد المخاطب بقول ﴿ اتَّقِ ﴾، واثنان أيضاً للمفرد المخاطب ولكن بلام الأمر ﴿ وَلْيَتَّقِ ﴾، وخمسة مواضع بضمير المتكلم ﴿ اتَّقُونِ ﴾، وأربعة مواضع بضمير الغائب ﴿ اتَّقُوهُ ﴾، وواحدة لا غير لجماعة الإناث ﴿ اتَّقِينَ ﴾.

وأما معمول التقوى، فهو إما لفظ الجلالة «الله»، وإما لفظ الرب، أى اتقوا ربكم. ويلاحظ أن لفظ «ربكم» يأتي في أمر الناس بالتقوى، أى أن المخاطبين به هم عموم الناس. وقد يأت الاثنان معا: «الله ربكم» أو: «ربه». ومن هذه المواضع:

١. ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب: ١].
٢. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الروم: ٣١].
٣. ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].
٤. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠].
٥. ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وأخيرة - وهى وحيدة - بغير إضافة، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وفى دعوة الرسل أقوامهم لتوحيد الله جاء بعد الأمر بالتقوى والطاعة - اتقوا الله وأطيعون - توضيح لبعض صفات الله التي تستوجب أن يؤمنوا عند سماعهم وهى لا تليق بغيره - سبحانه - فكيف يعبد سواه، مثل:

١. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢].
٢. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ [الشعراء: ١٨٤].
٣. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [يس: ٤٥].
٤. ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ١].
٥. ﴿قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠].

حِسَابٍ ﴿ [الزمر: ١٠].

وقد وجاءت معمولات أخرى للتقوى، وهى:

أولاً: النار:

﴿ فَإِنَّ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤].

ثانياً: اليوم الآخر:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨].

ثالثاً: السيئات:

﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۗ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

رابعاً: الفتنة:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ثالثاً: الأمر بالتقوى بين الأمر والنهى:

بمعنى أن الأمر بالتقوى قد يأتى معطوفاً على أمرٍ أمر الشارع به، أو نهى نهى عنه الشارع، أو يأمر بالتقوى ثم يعطف عليه الأمر أو النهى، أو يأتى أمر ونهى ويعطف عليه الأمر بالتقوى، ولكل ذلك معانٍ تناسبه، وقد يأتى بغير ذلك. ونذكر من هذه الآيات:

أ. أن يكون الأمر بالتقوى معطوفاً على أمر، أو العكس: ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ۗ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ب. الأمر بالتقوى بين الأمر والنهى، أو: معطوف على كليهما:

١. ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلِيْمَلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].
٢. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].
٣. ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

وسوف يتم دراسة ما يتعلق بخواتيم هذه الآيات ومناسبتها للسياق إن شاء الله تعالى.

رابعاً: الفعل الماضي «اتَّقُوا»:

- ورد هذا الفعل في تسعة عشر موضعاً؛ المكي منها ثمانية مواضع، منها:
١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].
 ٢. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].
- وأما المدني فهو أحد عشر موضعاً، منها:
١. ﴿قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].
 ٢. ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

ويلاحظ في التعبير بالماضي «اتَّقُوا» سواء في المكي أو المدني:

١. ذكر جزاء التقوى ويغلب في الآيات ذكر الجزاء الأخرى، سواء في ذكر

- النجاة من النار أو من الوعد بالجنة ووصفها، أو بذكر الدار الآخرة وأنها دار المتقين، أو بذكر الثواب..، والتوسع في ذكر ذلك وغيره.
٢. وكان المناسبة بين ذكر التقوى بلفظ الماضي وذكر عاقبتها وأجرها أنه لما فرغ من التقوى وأتمها كان المتوقع ذكر الجزاء.
٣. وذكر الماضي أراد تحقق الوقوع كأنه قد حدث.
٤. استخدام لو في المكي مرة واحدة لعموم الناس، وفي المدني مرتين لأهل الكتاب فقط، ومناسبة ذلك.
٥. التركيز على الجزاء الأخرى في المكي كأنه:
- أ. تركيز على الإيمان باليوم الآخر وهو أحد قواعد التوحيد.
- ب. الحمل على الإيمان بذكر الجنة والنار فكان مناسباً للدعوة في بدايتها.
- ج. أن الرسول ﷺ لم يكن يملك لهم في مكة ما يعدهم به من أمور الدنيا، أي حتى يكون الإيمان بالله وحده طلباً لثوابه لا للعاجل الفاني.
٦. المقارنة بين أهل التقوى والكفار صورة وعاقبة وذلك تقريباً في كل الآيات المكية، مثل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، و﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾، و﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

خامساً: الفعل المضارع «تتقوا»:

ورد أحد عشرة مرة الغالب فيها استخدام الجملة الشرطية. وكلها مدنية إلا آية الأعراف مكية، وهي في قصص الأنبياء. وغالبها في الإيمان والعمل الصالح المناسب للعهد المدني. وكذلك يتميز أسلوب الشرط بحصول الجواب أو النتيجة إذا وقع الشرط، مما يتميز معه عاقبة التقوى عند وقوع شروطها، فكان كالحث عليها لتحصيل هذه العاقبة العظيمة.

المكى: آية واحدة: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أما المدنى، فما ورد فيه: منها الشرطى، مثل:

١. ﴿ إِنْ تَمَسَسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

٣. ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦].

ويبقى موضع ليس من الشرط، وهو: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وقد عطف فيها بين البر والتقوى الإصلاح، ولكل معنى، كما سيأتى - إن شاء الله.

سادساً: الفعل المضارع «تتقون»:

ورد في تسعة عشر موضعاً، منها أربعة عشر موضعاً مكيّاً، والباقي مدنى. والملاحظ في المدنى الترجى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وعلى خلاف الأفعال السابقة من جعل التقوى سبباً لحسن العاقبة في هذه المواضع جعل التقوى هى العاقبة والنتيجة للأعمال الصالحة. وكذلك ارتباط التقوى بالأعمال الصالحة التي فرضت في العهد المدنى؛ عهد التشريع. بل أجل ذلك في أن العبادة سبب التقوى أو يرجى بها.

وأما الآيات المدنية، فما جاء فيها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأما المواضع المكية التنزيل، فيلاحظ عليها:

أولاً: أن التقوى هي دعوة الرسل وأنها مطلوبة بقوله تعالى: (ألا تتقون)، إذ بداية دعوة الرسل هي لتوحيد الله، ومن ثم وجدنا الرسل جميعاً متفقين على دعوة الناس إليها، إما بمعنى الإيثار، وإما بمعنى الخشية. لذلك لاحظنا أيضاً التكرار.

ثانياً: يلاحظ أن التقوى كذلك طلبت بعد تقرير أدلة التوحيد التي كان يسوقها الرسل لأقوامهم برهاناً على انفراد الرب بالخلق والرزق، مما يستوجب انفراده بالتوحيد والعبادة.

من هذه الآيات:

١. ﴿وَالِىٰٓ عَادِٓ أَخَاهُمْ هُوْدًا ۗ قَالَ يَنْقَوْمِٓ آعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُٗ ۗ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٢. ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصَرَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدِيرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

٣. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِٗ فَقَالَ يَنْقَوْمِٓ آعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُٗ ۗ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

٤. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۗ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٧٨].

٥. ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۗ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِٗ ٱلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣، ١٢٤].

٦. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوٰلِدَٰنَ شِيْبًا﴾ [المزمل: ١٧].

سابعاً: المفعل المضارع «يتقون»:

ذكر ثمانى عشرة مرة جمعت كثيراً من أمور التقوى ومطلوباتها السابقة، من أن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، وأن الموعدة والذكرى لهم، وكذلك النجاة في الآخرة، وأن الدار الآخرة لهم كذلك، ورحمة الله يكتبها لهم، وأن آياته الكونية لقوم يتقون، وأن آيات الله بينها رجاء التقوى، وكذلك أنزل قرآنه سبحانه وتعالى لذلك. والمكى فيها ثلاثة عشر موضعاً، والمدنى خمسة مواضع. من المدنى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وأما المواضع المكية، فمنها:

١. ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].
٢. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وِلىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].
٣. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ثامناً: المفعل «يتقون» المجزوء:

ورد في ستة مواضع؛ أربعة مواضع منها شرطية لبيان عاقبة التقوى، واثنان في الأمر المفرد بالتقوى، ولكل معنى في السياق. والمدنى منها خمسة مواضع، والمكى موضع واحد مقرون بالصبر المناسب للدعوة في العهد المكى، علاوة على كونه في قصة يوسف، والقصص القرآنى أحد أهدافه تثبيت أهل الإيمان بحكاية ما حدث للرسول مع أقوامهم السابقين وصبرهم على ذلك. والموضع المكى هو: ﴿قَالُوا أءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ

وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وأما المدنى فمنه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ تَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ [الطلاق: ٢].

فجمع للمتقى في جواب الشرط الرزق والمخرج واليسر، وثمَّ فارق بين أن يجعل له مخرجاً وبين أن يجعل له من أمره يسراً، وجمع له كذلك تكفير السيئات وإعظام الثواب.

تاسعاً: بقية مشتقات التقوى:

١. الفعل «يتقاه»:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخَشَّ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

٢. الفعل «يتقى»:

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

٣. «الأتقى»:

لم تأت صيغة أفعل هذه إلا مرة واحدة، وكأنها لا تحتمل أكثر من ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ [الذرى: ١٧] الذى يؤتى ماله يتركى [١٨] وما لأحد عنده من نعمة تجزى [١٩] إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى [٢٠] ولسوف يرضى [٢١] [الليل: ١٧، ٢١].

٤. «أتقاكم»:

وكذلك «أتقاكم» في خطاب المؤمنين ذكرت مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥. «واق»:

وهذه اللفظة وردت ثلاث مرات، كلها متعلقة بالله تعالى، ولها معانٍ، منها:

﴿هُمَّ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ

مِنَ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

والمعنى أن ليس لأحد واق من الله، لا الأنبياء ولا الأقوياء ولا غيرهم، إذا اتبعوا أهواءهم وخالفوا أمر ربهم.

٦. «تقياً»:

وردت ثلاث مرات؛ اثنان في سورة مريم، في قصة يحيى وعيسى، والثالثة عامة في ثواب التقوى، وهي:

١. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

٢. ﴿وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا وَرِزْقًا وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

٣. ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِمَّنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

٧. «تقاة»:

تقاة بمعنى تقية، وردت مرة واحدة في حكم خاص بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٨. «تقاته»:

ذكرت مرة واحدة كذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٩. الفعل «يوق»:

المبنى للمجهول، ورد مرتان في وقاية النفس من الشح، ولم يأت إلا في الشح والبخل، ومبنياً للمجهول، ومدنياً، ومنها:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٩].

١٠. الفعل «اتقى»:

جاء مذكوراً في سبعة مواضع، وجاء بالإنفراد لبيان مسؤولية كل فرد عن عمل نفسه، وليبين أن التقوى محلها القلب أو بالأصح أن الله هو العالم بمن اتقى، علم ذلك إليه، وأن التقوى هي البر، وأنه ييسر أصحاب التقوى للحسنى في الدنيا والآخرة، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. إلى آخره. واثنان منهم مكيان، والخمسة مدنية.

المكى:

١. ﴿ يَبْنِيْٓ اءَادَمَ آِمًا يَاتِيْنٰكُم رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُوْنَ عَلَيْكُمْ اءَايٰتِيْٓ فَمَنْ اٰتَقٰٓ وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴾ [الأعراف: ٣٥].
٢. ﴿ فَاَمَّا مَنْ اَعْطٰٓ وَاَتَقٰٓ ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَسَنٰٓي ﴿٦﴾ فَسَنِيْسِرُّهُ لِّلْیَسْرِیْ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل: ٥-٧].

ومن المدنى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَاتَّقَىٰ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

١١. «تقواها»:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٨].

تبين رحمة الله ﷻ وقطع العذر، ومعنى المقابلة بين الفجور والتقوى.

١٢. «تقواهم»:

جاءت مرة واحدة تبين أن التقوى نفسها جزاء الهداية: ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

١٣. «المتقون»:

جاءت ست مرات فقط، وهي إما بياناً لصفاتهم، أو وصفاً للجنة التي وعدوا بها وذكرها لها. وقد جاء ثلاث منها مكية، وثلاثٌ مدنية.

المكية:

١. ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٢. ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٥].

٣. ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣].

أما المدني، فمنه:

١. ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].
 ٢. ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا
 دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾
 [الرعد: ٣٥].

١٤. «المتقين»:

وردت في ثلاثة وأربعين موضعاً، منها ستة وعشرون موضعاً في التنزيل
 المكي جاءت لتطالبههم بالصبر، وتبين لهم أن العاقبة للمتقين، ثم ذكر الجنة والنار
 للحث على الإيثار والتوحيد، وكذلك التقابل بين فريقى، المتقين والفجار، وجزاء
 كل وعاقبته، وذكر الأمم السابقة وما آلت إليه أحوالهم بالإيمان أو بعدهم.

أما المدنى: وهى سبعة عشر موضعاً فتبدأ بإيضاح وتقرير أن الكتاب هدى
 للمتقين، ويبين صفاتهم، وأن البيان والموعظة للمتقين، كأنه كالحث لهم على
 التزام صفات التقوى. وهى مناسبة للأوامر والنواهي في العهد المدنى. ثم بين
 لهم ما يجمع ذلك كله فإن الله لا يقبل هذه الأعمال إلا من المتقين، مع الحض على
 ذلك بكونه مع المتقين، وأنه يجبهم - سبحانه. ومن مواضع المدنى:

﴿الْمَرْءُ الَّذِي كَتَبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

وأما المكي، فمنه:

١. ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾
 [النحل: ٣٠].

٢. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾
 [مريم: ٩٧].

٣. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾
 [الأنبياء: ٤٨].

المطلب الثالث

التقوى في كلام أهل الشرع

وإذ قد عرفنا مادة التقوى في كلام أهل اللغة وذكرنا إحصائها، فلا بد من معرفة معناها في لسان أهل الشرع، ليكتمل المعنى ويتضح المقصود، إذ على معرفة معناها في عرف الشرع يتوقف معرفة ما ينبى على ذلك من معرفة الله تعالى، والخوف منه والخشية له، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. فنبداً بكلام الفخر الرازى - رحمه الله تعالى، لأنه لخص كلام من سبقه وفصل بعض التفصيل، حيث يقول عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

«المسألة الثانية: المتقى في اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية فرط الصيانة، إذا عرفت هذا فنقول إن الله تعالى ذكر المتقى هاهنا في معرض المدح، ومن يكون كذلك أولى أن يكون متقياً في أمور الدنيا، بل بأن يكون متقياً فيما يتصل بالدين، وذلك بان يكون آتياً بالعبادات محترزاً عن المحظورات»^(١).

وهو كلام كثير من المفسرين، فكانت التقوى عند الإمام الرازى هي الإتيان بالعبادات وترك المحظورات ولا يكون المرء تقياً إلا بذلك ولكنه - رحمه الله - أورد سؤالاً مهماً مفاده: هل يستحق المرء اسم التقوى إذا لم يتق الصغائر؟ يقول - رحمه الله تعالى: «واختلفوا في أنه هل يدخل اجتناب الصغائر في التقوى؟ فقال بعضهم: يدخل كما يدخل الصغائر في الوعيد، وقال آخرون: لا يدخل، ولا نزاع في وجوب التوبة من الكل، إنما النزاع في أنه: إذا لم يتوق الصغائر هل يستحق ذلك الاسم؟»، وكأنه - رحمه الله - اختار عدم استحقاقه لهذا الاسم، إذ أورد من الأدلة ما يؤيد ذلك ويقويه وإن لم يصرح فقال: «فروى عنه عليه السلام أنه

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»، ط. دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١/ ٣٨١-٣٨٢).

قال: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس».^(١) وعن ابن عباس - رضى الله عنهما: «أنهم الذين يحدرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه».^(٢) وبإيراده الحديث، وهو أن العبد لا يبلغ درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به فمن باب الأولى لا يكون تقياً بارتكاب الصغائر فإنها وإن سميت كذلك فهي حرام وإن لم ترق إلى الكبائر.

ومن ثم يقع اسم المتقى عند الرازي على من ترك المحظورات وأتى بالعبادات واجتنب الصغائر، ولكن هل يشترط في التقوى ترك ما لا بأس به، أى لا حرج فيه ولا إثم، كما أشار إليه غيره من أهل العلم؟ فالظاهر أن استدلاله بالحديث المذكور يشير ضمناً إلى ذلك حيث عقب بعد ذلك - رحمه الله - فذكر جوهر التقوى ومعناها، فقال: «واعلم أن التقوى هى الخشية قال في أول سورة النساء: ﴿يَتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١]. ومثله في أول سورة الحج، وفي الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]. ولا فرق في الخشية بين الصغائر والكبائر».^(٣)

ثم وصل بنا إلى الغرض الأصلي منها، وهو خمسة أمور، فقال^(٤) - رحمه الله: «واعلم أن حقيقة التقوى وإن كانت هى التي ذكرناها، إلا أنها قد جاءت في القرآن، والغرض الأصلي منها الإيثار تارة، والتوبة تارة أخرى، والطاعة

(١) الحديث أخرجه العراقي في أحاديث الإحياء (٣٣/١)، كتاب الشعب، وقال رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى.

(٢) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣٨٢/١).

(٣) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣٨٢/١).

(٤) المصدر السابق، (٣٨٢/١).

ثالثة، وترك المعصية رابعاً، والإخلاص خامساً.

أما الإيمان فقوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦]، أى: التوحيد، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣]، وفي الشعراء: ﴿قَوْمٌ فَرَعَوْنَ أَلَّا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١١].

وأما التوبة فقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ أٰمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]، أى: تابوا.

وأما الطاعة: فقوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَنْ أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ﴾ [النحل: ٢]، وفيه أيضاً: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]، وفي المؤمنين: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وأما ترك المعصية: فقوله تعالى: ﴿وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، أى: فلا تعصوه.

وأما الإخلاص: فقوله في سورة الحج: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، أى: من إخلاص القلوب، فكذا قول الله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وهذه الأغراض بهذا التفصيل ستكون عوناً - إن شاء الله تعالى - فيما يأتي، ونبراساً نستضيء به في تنزيل ألفاظ التقوى الواردة على حسب تلك المعانى، بحيث يظهر المراد منها بحسب السياق وغيره من الأدلة.

ويختتم الإمام الرازى كلامه في التقوى بذكر أهميتها وعظم مكانتها وشرف أهلها وعلو منزلتهم، فيقول: «واعلم أن التقوى مقام شريف، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله..».

وينهى الإمام هذا الختام قائلاً: «ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلا ما في قول الله

تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] كفاه، لأنه تعالى بين أن القرآن هدى للناس في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم قال ها هنا في القرآن إنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس، فمن لا يكون متقياً كأنه ليس بإنسان^(١).

ونواصل النظر في كلام أهل العلم، لنستكمل تعريف التقوى، حيث نصل إلى شرح الحافظ ابن رجب الحنبلي لحديث: «اتق الله حيثما كنت» من كتابه «جامع العلوم والحكم»^(٢)، حيث هو أجمع من رأيت شرحاً لمعنى التقوى في شرحه للحديث، ونعيد ترتيب كلامه ليتفق مع الترتيب العام للكلام على تعريف التقوى، يقول - رحمه الله - ما مختصره: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، إلى أن يقول متدرجاً في الكلام على التقوى: وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، كما قال أبو هريرة^(٣) لما سئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم،

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/٣٨٢).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، (١/٣٩٥) وما بعدها.

والحافظ ابن رجب هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الشهرير بابن رجب الحنبلي، محدث حافظ فقيه أصولي مؤرخ، ولد ببغداد عام ٧٣٦هـ، ومؤلفاته ٣٣ جزءاً ورسالة منها «جامع العلوم والحكم»، وتوفي عام ٧٩٥هـ. انظر ابن حجر العسقلاني «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، (٢/٣٢١-٣٢٢).

(٣) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي أسلم عام ٧هـ، كان من حفاظ الصحابة روى عن الإمامين أبا بكر وعمر، وأبي بن كعب، والفضل بن العباس، وكثير من غيرهم، شهد مع النبي ﷺ خيبر وما بعدها، توفي - رحمه الله - عام ٥٩هـ، انظر الحافظ بن كثير «البداية والنهاية»، (٨/١٠٣).

فقال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى». وأخذ هذا المعنى ابن المعتز^(١) فقال:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْضِ مِنْ الشُّوكِ يَحْذِرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنْ الْجِبَالُ مِنَ الْحَصَى

فكان أول ما أشار إليه ابن رجب - رحمه الله - من معاني التقوى حسب ترتيبنا لكلامه هو اجتناب المحرمات، ثم يزيد عليه بعد ذلك بمثل ما ذهب إليه الإمام الفخر في بداية تعريفه للتقوى، فيقول - رحمه الله تعالى: «فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه».

ثم يرتفع بمعنى التقوى منزلة أخرى فيقول: «ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات»^(٢)، وهو في هذه المنزلة يفيدنا معنى جديداً تشتمل عليه التقوى، وهو زائد على اختيار الفخر الرازي، وهو ترك الشبهات، فلا تكمل تقوى العبد - على كلام الحافظ ابن رجب - إلا بترك الشبهات، وهو حق، إذ حديث النبي ﷺ يشير إلى هذا المعنى، وهو قوله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»^(٣)، وإن كان الرازي أدخل في التقوى ترك ما لا بأس به، وهو ترك بعض

(١) هو عبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل الخليفة العباسي، أديب، شاعر من آثاره ديوان شعر، ت ٢٩٦هـ.

(٢) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (١/٣٩٥).

(٣) رواه البخاري (٥٢)، و(٢٠٥١). وانظر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني «فتح الباري بشرح صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري»، تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن باز،

حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله ولا شيئاً من الشر أن تتقيه»^(١).

وبعد أن قطعنا هذا الشوط الطويل مع الحافظ ابن رجب في تبين ملامح التقوى وصل بنا - رحمه الله تعالى - إلى أصل التقوى، فقال: «وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى»، وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس، قال: «كيف يكون متقياً من لا يدري ما يتقى؟».

قال معروف الكرخي^(٢): إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة ولا تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك وقد قال النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة^(٣): «إذا رأيت أمتي قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب به أحداً»^(٤).

على يد عبد الرحمن بن عوف، وتوفي بدمشق بعد أن ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليها. انظر أبا النعيم الأصبهاني «حلية الأولياء»، (١/ ٢٨٨).

(١) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٠).

(٢) علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي، واسم أبيه فيروز، وقيل فيروزان، من الصابئة، توفي سنة مئتين، انظر الإمام الذهبي «سير أعلام النبلاء»، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م، (٩/ ٣٣٩).

(٣) هو محمد بن مسلمة بن خالد بن عدى الأنصاري الأوسى، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك ومات بالمدينة عام ٤٦ هـ. انظر ابن الأثير الجزري «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، (٥/ ٢١٢).

(٤) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٢). و«أحد» الجبل المشهور بالمدينة المنورة، وقصده ﷺ ألا يشارك في الفتن.

وما زال جبل الحديث متصلًا في معنى التقوى وحقيقتها، حتى نصل إلى صاحب رسالة «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»^(١) العلامة الفاكهاني، حيث هو من قد علمت الذي أفرد آية التقوى برسالة وكان دقيقاً في اختياره لمعنى التقوى من بين ما عرض لها من معاني وحقائق، فنذكر حاصل كلامه وما زاد به عن غيره ممن سبق أو ممن عارضه، ثم الترجيح بين ذلك كله لاختيار الأقرب إلى الأدلة والأولى بالمتابعة، وحتى نستقصى في البحث ما ورد فيه.

يقول - رحمه الله تعالى:

«الطرف الأول في حقيقة التقوى جملة وتفصيلاً. أما جملة: فهي عبارة عن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات. قال الغزالي^(٢) - رحمه الله تعالى: التقوى في قول شيوخنا: تبرئة القلب عن ذنبٍ لم يسبق عنك مثله، حتى يحصل للعبد من قوة العزم على تركه وقاية بينه وبين المعاصي.

(١) العلامة تاج الدين عمر بن علي اللخمي المعروف بالفاكهاني «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق وتعليق محمد يحيى بيدق، الطبعة الأولى، مؤسسة الريان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، (ص ٢٩).

والعلامة الفاكهاني ولد بالاسكندرية سنة ٦٥٤هـ، يقول عنه ابن فرحون في «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، (ص ١٨٦-١٨٧): قرأ القرآن بالقراءات، وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب، على حظ وافٍ من الدين المتين، والصلاح العظيم، واتباع السلف الصالح، وحسن الخلق، وله شعرٌ حسن، توفي - رحمه الله - عام ٧٣٤هـ. وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١٤/١٦٨).

(٢) الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ولد ٤٥٠هـ، فقيه متكلم أصولي حكيم، له مؤلفات كثيرة أشهرها: إحياء علوم الدين، توفي ٥٠٥هـ. انظر ابن السبكي «طبقات الشافعية»، (٤/١٠١).

وأما تفصيلاً: فاعلم أن التقوى في القرآن الكريم تنطلق على ثلاثة أشياء: أحدها: بمعنى الخشية والهبة، قال تعالى: ﴿ وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال - سبحانه وتعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال ابن عباس رضي الله عنه: أطيعوا الله حق طاعته. قال مجاهد: هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر.

الثالث: بمعنى تبرئة القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى كما تقدم دون الأولين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]، ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت بهذا أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية، وهي: تبرئة القلب عما ذكرنا^(١).

وبتأمل ما قاله - رحمه الله تعالى - من ذكر التقوى جملةً، لم نره خرج على كلام أهل العلم. وأما تفصيلاً، فما ذكره من أن الأول والثاني مما يطلق على التقوى فكذلك هو قول أهل العلم، وإن استدل على الأولى وهي الخشية بقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٤١]، حيث استدل بها الإمام الرازي على التقوى بمعنى الإخلاص كما سبق، والتدقيق أن الآية محتملة، فلا يظهر خلاف - إن شاء الله تعالى.

وأما الثالث فالنظر فيه من وجوه، وهو الذي ذكره في تعريف التقوى، وإن كان قد نقله عن الإمام الغزالي، لكنه اختاره وأقام الدليل عليه من الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]:

(١) الفاكهاني «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص ٢٩).

الوجه الأول: أنه ذكر في حقيقة التقوى تفصيلاً أنها على ثلاث أشياء في القرآن الكريم ثم قال في الثالث إنه هو حقيقة التقوى دون الأولين، فكيف تطلق على ثلاثة أشياء في القرآن، ثم يقول والثالث هو الحقيقة دون الأولين؟ فكان الأولى أن يذكر أن ذلك اختياره أو ما ارتضاه، وأنه الذي سيبنى عليه شرحه، خاصة وأن الأولين لم يُقدح في دليلهما، وأنها من معاني التقوى التي لا غبار عليها.

الثاني: هو احتجاجه بالآية الكريمة على أن العطف يقتضى المغايرة بين الطاعة والخشية والتقوى. والرد أن التغاير ليس لازماً للعطف فقد يعطف الشيء على مرادفه للتأكيد مثلاً كقول الشاعر:

فألفى قولها كذباً ومينا

وقد يعطف الخاص على العام والعكس، لفرط الاهتمام بالخاص، أو لغيره من المعاني المستنبطة من السياق، كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فعطف جبريل وميكال على الملائكة، وهما قطعاً من الملائكة، وإن ذلك من باب عطف الخاص على العام لخصوصيته، كما في تفسير الآية، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. فالعطف يقتضى التغاير، فإذا نفعل في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩]، وله تفصيل يأتي في موضعه - إن شاء الله تعالى - وهو قريب مما سبق التوفيق به.

ومن عطف العام على الخاص قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، فلا مانع إذاً في قوله تعالى في الآية محل الاستشهاد ﴿وَنَحْشَ اللَّهِ وَيَتَّقَهُ﴾ [النور: ٥٢] أن يكون

من باب الترادف أو عطف العام على الخاص لفائدة. (١)
 ثالثاً: قوله: «فعلمت بذلك أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية
 وهى: تبرئة القلب عما ذكرنا» ليس بلازم.

وعلى أية حال فقد أفادنا - رحمه الله تعالى - معنى آخر جديداً للتقوى ينضم
 إلى ما ذكر أهل العلم، وبعد ذلك قسم - رحمه الله تعالى - ما ذكر من معنى
 التقوى إلى منازل: الأول: تقوى عن الشرك، والثانى: تقوى عن البدعة،
 والثالث: تقوى عن المعاصى الفرعية.

ويجمعها قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا
 وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

ونستكمل رحلتنا مع العلامة الفكهانى في تعريفه لحقيقة التقوى لزماً
 علينا، حيث لخص لنا مرة أخرى تعريفه للتقوى، ووضع لها حداً جامعاً على
 حد تعبيره، فنلخص مقصوده في بعض، ونسوق حروفه في البعض الآخر، ثم
 نقف بعد ذلك لنقارن ونوازن بين كلامه بعضه بعضاً، وبين كلامه وكلام أهل
 العلم.

يقول - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر للإمام الغزالي تعريفاً للتقوى، وهو
 ترك فضول الحلال، وخبر الرسول ﷺ: «إنما سمى المتقون متقين لتركهم ما
 لا بأس به حذراً مما به بأس» (٢):

(١) انظر لما سبق جمال الدين بن هشام الأنصارى «معنى اللبيب»، وبهامشه حاشية الشيخ
 محمد الأمير، دار إحياء الكتب العربية، (٢/ ٣٢).

(٢) انظر الإمام الفاكهانى «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق محمد يحيى
 بيدق، ص ٣١ وما بعدها.

«فأحببت أن أجمع بين ما قاله علماؤنا وبين ما في الخبر عن الرسول ﷺ فيكون حداً جامعاً، ومعنى بالغاً، فأقول: التقوى اجتناب ما تخاف منه ضرراً في دينك.»^(١)

ثم الذي يُخَاف منه في أمر الدين قسمان: يخص الحرام والمعصية^(٢)، وفضول الحلال، لأن الاستعمال لفضول الحلال يخرج صاحبه إلى الحرام ومحض العصيان، وذلك لشره النفس وطغيانها، وتمرد الهوى وعصيانه. فقد تحصل لك من ذلك أن التقوى على قسمين: فرض ونفل. فالفرض ما تقدم من أنه تبرئة القلب عن شر. والنفل ما نُهي عنه نهى تأديب، وهو فضول الحلال، كالمباحات المأخوذة بالشهوات.

فالأولى فرض يلزم بتركها عذاب النار. والثانية تقوى خير وأدب، يلزم بتركها الحبس والحساب واللوم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الأدنى من التقوى، وهي منزلة مستقيمي الطاعة. ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة العليا من التقوى، وتلك منزلة مستقيمي المباح. وإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل

(١) وانظر كذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، دار الفكر، بيروت (٣٢/١). والألوسي «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، (١/١٧٩). وانظر القاضي أبا سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي بحاشية الكازوني)»، تحقيق الشيخ عبد القادر عرفات العشا حسونة، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، (٢/٩٩-١٠٠).

(٢) قال الألوسي في «روح المعاني»: «المراتب متعددة لتعدد مراتب الضرر، فأولها التوقى عن الشرك، والثانية التجنب عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، والثالثة ما أشير إليه بما روى الترمذى عنه ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً بما بأس به»، وفي هذه المرتبة يعتبر ترك الصغائر.»

معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقتها، وجمع كل خير فيها، وهو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين، وذلك منزلة الأدب على باب الله ﷻ. فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة، فافهمه موقفاً.^(١)

هذا ملخص كلامه الذي يتحصل في أن التقوى فرض ونفل. والفرض هو تجنب ضرر المعصية، والنفل ترك الفضول.

ونلاحظ شيئاً آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو أن تعريفه للتقوى بترك المعصية والحرام، أو تبرئة القلب عن الذنب وترك الفضول لا يعنى ذلك أن المتقى لا يأتى بالواجبات والمستحبات الشرعية، إذ لا يعقل أن المتقى يتجنب المعاصى والذنوب وهو مقصر في الواجبات الشرعية كترك الصلاة مثلاً أو الصيام أو الصدق أو الأمانة وبر الوالدين وغيرها، إذ ذلك عين المعصية، فكأن مجمل كلامه في نهاية المطاف أن التقوى الإتيان بالواجبات وعدم التفريط فيها، مع بقية ما أشار إليه الرازى.

ومن السابقين المتقدمين ممن تكلموا في التقوى وتعريفها ولزومها: الحارث المحاسبى^(٢) - رحمه الله. فقد بين لنا حد التقوى، وإن كان على طريقة من ذكرنا من أهل العلم ولكنه ساق ذلك في صيغة الحوار من السؤال والجواب، تعليماً للسائل، وتفهماً للقارئ والسماع، وتثبيتاً لتلك المعانى في القلوب والأذهان.

يقول - رحمه الله^(٣): «قلت: فما التقوى؟»، قال: «الحذر بالمجانبة لما كره الله

(١) الفاكهاني «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص ٣١).

(٢) الحارث بن أسد المحاسبى نشأ بالبصرة، نزل بغداد، نقل الحديث عن أعلام عصره، ألف المؤلفات في تركية النفس منها: الرعايا، والوصايا، توفي ٢٤٣هـ. انظر ابن الملكن «طبقات الأولياء»، (ص ١٧٥-١٧٧).

(٣) المحاسبى «الرعاية لحقوق الله»، تحقيق عبد القادر عطا، الطبعة الثالثة، دار الكتب الحديثية، (ص ٤٧).

عَنْكَ»، قلت: «الحذر من ماذا؟»، قال: «الحذر من الله عَنَّكَ»، قلت: «فالحذر من الله في ماذا؟»، قال: «في خصلتين: تضييع واجب حقه، وركوب ما حرم ونهى عنه في السر والعلانية».

فأعاد - رحمه الله - علينا معنى التقوى بالحذر والمجانبة لما كره الله، وهو قريب من كلام الفكهاني والألوسي^(١) ومن نحا نحوهم - رحمهم الله جميعاً - وإن عبروا بما يضر في الدين والآخرة، فقد عبر عنه هو بما كره الله عَنَّكَ، وليس المقصود الكراهة الاصطلاحية، وهي تعبير المتأخرين في الفقه والأصول بما نهى الشارع عنه نهياً غير جازم، لا يآثم فاعله، وإنما لا شك مراده ما هو أعم من ذلك مما يشمل الحرام والمكروه، كما هو تعبير المتقدمين، وكما جاء في حديث الرسول ﷺ: «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وضياح المال»^(٢)، ومما لا ريب فيه أن ذلك يشمل الحرام.

(١) هو محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، ولد عام ١٢١٧هـ، مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوي، نحوي، مشارك في بعض العلوم وله بعض مصنفات منها: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، وتوفي في عام ١٢٧٠هـ. انظر البغدادي «هدية العارفين»، (٢/٤١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٥). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، تحقيق الصباطي وحازم محمد وعماد عامر، (٦/٢٥١).

المطلب الرابع ولكن يناله التقوى منكم

نستفتح بهذا المطلب، وهو مطلب الإخلاص الذي يجب أن نبدأ به، وقد عبر القرآن عنه بقوله: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

بعدما أشرنا فيما سبق إلى معنى التقوى لغةً وفي عرف أهل العلم، نحصى أولاً الآيات التي وردت فيها لفظة التقوى ذاتها، لنستوضح منها صورة متكاملة لأهل الإيمان تحمل على التمسك بها، وحمل النفس عليها، ولتتحقق سعادة الفرد والمجتمع، وحتى تعود حضارة هذا الدين حية كما كانت على أسسها المتينة:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ولقد وردت كلمة التقوى في القرآن خمس عشرة مرة، وهذه هي مواضعها:

أولها: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الثانية: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الثالثة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

الرابعة: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

الخامسة: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

السادسة: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾

[التوبة: ١٠٨].

السابعة: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ

أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الثامنة: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا لَّحْنُ نَزْرُقُكَ وَالْعِيقَبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

التاسعة: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

[الحج: ٣٢].

العاشرة: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾

[الحج: ٣٧].

الحادية عشرة: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾

[الفتح: ٢٦].

الثانية عشر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣].

الثالثة عشرة: ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

[المجادلة: ٩].

الرابعة عشرة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ

التَّغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

الخامسة عشرة: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ أَهْدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾

[العلق: ١١-١٢].

فبالنظر إلى هذه الآيات نراها وضحت على نحو دقيق وتناسق بديع شمول

التقوى وصورتها، فرأينا أولاً: أن الله تعالى هو أهل التقوى، وأنه لا يناله إلا

التقوى من الناس، وأن الرسول ﷺ إنما أمر بالتقوى، ثم جسد ملامح التقوى بأن

لها كلمة هي كلمة التقوى، ولها زياً يعرف به أصحابها هو لباس التقوى، وأن لها

مستقراً يفيض على بقية الأعضاء وهو القلب: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

[الحج: ٣٢]، ولها زاد يتزوده المرء هو خير زاد، زاد الآخرة: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ

خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ووضحت الآيات بشدة أن التقوى وإن

كان محلها القلب، فإن لها مظاهر تنبئ عما في القلب، وسلوكاً رشيداً يشير إلى

تلك الصفة هو احترام شعائر الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ

تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ، ودلت على الأساس الأمتن، هو أساس التقوى. وأخيراً

بينت أن العاقبة للتقوى، أى لهم العقبى في الأولى والآخرة.

و نبدأ رحلتنا المباركة مع هذه الآيات الكريهات، نفصل تلك المعانى، ونجلى تلك الحقائق، ونأخذ أول ما نأخذ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، توطئة للكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، لتعلقها بالله ﷻ فهي أحق بالبدء بها. والمعنى أنه سبحانه حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه، فيؤمنوا ويطيعوا، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا.^(١) ونشير إلى ما ذكره صاحب «التحرير والتنوير» العلامة الطاهر بن عاشور^(٢)، يقول - رحمه الله^(٣): «جملة ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ واقعة موقع التعليل لمضمون جملة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [المدثر: ٥٥]، تقوية للتعريض بالترغيب في التذكر، والتذكر يفضى إلى التقوى، فالمعنى: فعليكم بالتذكر، واتقوا الله تعالى، لأن الله هو أهل التقوى». وأهل الشئ: مستحقة، وأصله أنه ملازم الشئ وخاصته وقرابته وزوجته، ومنه: ﴿فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]، وعليه فأهل التقوى أى المستحق لها، وأهل المغفرة أى أن المغفرة من خصائصه،

(١) انظر الزخشري «الكشاف»، دار المعرفة، بيروت، (٤/١٦٢-١٦٣). والطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، وعلى هامشه: النيسابورى «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، مجلد ١٢، (٢٩/١٠٨). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، مكتبة التراث الإسلامى، حلب، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، (٤/٤٤٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/١٣).

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس، ومولده ووفاته ودراسته بها ولد عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، وله مصنفات مطبوعة منها «التحرير والتنوير» في تفسير القرآن، وتوفى عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. انظر عمر رضا كحالة «معجم المؤلفين»، (٣/٣٦٣).

(٣) الإمام محمد الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (٢٩/٣٣٤-٣٣٥). وأضاف بيت الكشاف:

ألا يا ارحمنى يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

وأنه حقيق أن يغفر، لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه، وهو تعريض بالمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن يغفر لهم ما قد سلف، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨] وتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]. وتعريف جزأى جملة ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى ﴾ للقصر على الله تعالى أنه لا غيره يستحق أن يتقى ويتجنب غضبه، كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وذكر ابن كثير في تفسيره حديث النبي ﷺ إذ قال: قال ربكم: «أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له»^(١). ونختم كلام ابن كثير بما أورده من تكرار كلمة (أهل) دون أن يقال: والمغفرة، للإشارة إلى اختلاف المعنى بين أهل الأولى وأهل الثانية.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾، وهو موضع شديد الارتباط بتقوى القلب وهو الإخلاص له سبحانه.

وقد نزلت الآية الكريمة^(٢) لتبين للمؤمنين - بعدما ذكر الله تعالى من مناسك الحج وشعائره - أن الأصل في ذلك كله تقوى الله، وأن الواصل إليه - سبحانه - هو التقوى منكم، دون نفس اللحم والدم، على خلاف معتقدات أهل الجاهلية وفعلهم، فإنهم كانوا يلوثون بدماء القرابين ولحومها الكعبة

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٤٤٧).

(٢) وهناك قراءة أخرى: (لن تنال الله لحومها ولا دماؤها)، بالتاء في الموضعين، فأنت لفظ التقوى، ومن قرأ بالياء فلأن التقوى والتقى واحد. انظر ابن الجوزي «زاد المسير»، (٥/٤٣٤).

المشرفة، ظناً أن ذلك يصل إلى الله.

قال الألوسى في روح المعاني^(١): «أى لن يصيب رضا الله تعالى اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء، ولكن يصيبه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمه تعالى والتقرب إليه سبحانه والإخلاص له ﷻ، وقال مجاهد: أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيماً لها، وتقرباً إليه تعالى» ا.هـ.

وفي الآية، بعد تخلص معتقدات أهل الإيمان من أى شائبة من شوائب الجاهلية وحمل أعمالهم وأقوالهم على التقوى، إشارة لطيفة إلى أن ينظروا إلى المقصود من هذا العمل ومن كل عمل، وهو ما يصل إلى الله - جل وعلا - من أعمالهم، وذلك هو الإخلاص المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَتَأَلَّهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾، فاعمل ما شئت وقل ما شئت ظاهراً وباطناً، فلن يصل من ذلك كله إلى الله العلى سوى ما كان منك على التقوى، فلتكن محاسبتك لنفسك إذاً على هذا المقياس، فما كان لوجه الله فأمضه، وما كان لغيره فدعه، فإن الله لا يصل إليه إلا ما كان خالصاً لوجهه وصالحاً على سنة نبيه ﷺ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، فكان هذا الموضع للتقوى داعياً المرء إلى الإخلاص في عمله، وترك الرياء فيه أو محبة ثناء الناس أو حب الظهور والشهرة، وتنقية عمله من كل هذه الشوائب المكدره له والأمور المحبطة لثوابه. يقول ابن الجوزى في «زاد المسير»: ^(٢)

(١) محمود بن عبد الله الحسين الألوسى «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، دار الفكر ببيروت، طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، (١٠/٢٧٩-٢٨٠).

(٢) الإمام ابن الجوزى «زاد المسير في علم التفسير»، المكتب الإسلامى، الطبعة الرابعة

«والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله، وإنما يتقبل ما يتقونه به، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عَرِبَتْ عن نية صالحة».

١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، (٥/٤٣٤).

وابن الجوزي هو عبد الرحمن بن علي بن محمد، ولد ببغداد عام ٥١٠هـ، محدث، حافظ فقيه، واعظ أديب، مؤرخ، مشارك في علوم أخرى وله مصنفات تزيد على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً منها «زاد المسير في علم التفسير» وتوفي - رحمه الله - في بغداد عام ٥٩٧هـ. انظر السيوطي «طبقات المفسرين» ص (١٧).

المطلب الخامس محل التقوى

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى:

وكلمة التقوى لا ينطقها ولا يعمل بمقتضاها ويثبت عليها إلا صاحب قلب عامر بالتقوى، ممتلئ منها، يخشى الله ويتقيه، فينضح ذلك على الجوارح، لأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت سائر الجسد، ألا وهى القلب، كما قال رسول الله ﷺ: (١) **فقلبُ حربٍ من التقوى فارغٌ منها أنى يتأتى منه كلام التقوى وألفاظ الخشية! ناهيك عن أعمال الإيمان وسلوك الطاعة.** إن ما يتميز به ذلك الدين هو تلك الصلة الوثيقة بين القلوب وبين خالقها، تلك الصلة من المحبة والخشية والإنابة والطمأنينة بذكره والتعلق به، أى صلة التقوى التي كان القلب إذن محلها التقوى ومستقرها، منه تفيض، ومنه تنطلق.

وكان لذلك موعدا مع مكان ومنزل التقوى، وقد ذُكر ذلك في موضعين من القرآن الكريم، الأول: قوله: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** ﴾ [الحجرات: ٣]، والثانى: قوله: ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعْظِمَ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢].

ونبدأ بالموضع الأول، وهو قول الحق سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ** **أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم** **مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ٣].

(1) رواه البخارى (٥٢) من حديث النعمان بن بشير. انظر أحمد بن على بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/١٢٦). ومسلم (١٥٩٩)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٣١/٦).

يقول ابن جرير: (١)

«يقول تعالى ذكره إن هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى». وأول ما نشير، نشير إلى أن الآية ذكرت ميزة عظيمة لأهل التقوى، وهي أن قلوب أهل التقوى إنما اصطفاها الله تعالى لذلك، وهو وحده الذي أخلصها وهياها ومحصها لتقواه تعالى، فكأن الله - جل وعلا - بسابق علمه علم أهلية هذه القلوب له، لتوحيده ومحبهه وذكره، أي لتقواه الشاملة، فنقاها لذلك وهذها، لتكون أوعيته من خلقه ومحل رحماته من بين المؤمنين به ﴿اللَّهُ سَجَّتِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وذلك بما أعانها به ووفقها له من العمل الصالح من مثل ما ذكر سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُوبُونَ

(1) ابن جرير الطبري، «جامع البيان»، مجلد ١١، (٧٦/٢٦). والغض الكف في لين، كما

يقول ابن جرير، ومنه غض البصر، وهو كفه عن النظر، كما قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

يقول ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٢٢٢/٢٦-٢٢٣): «الغض حقيقته خفض العين،

أي أن لا يحدق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى

الإسرار، والامتحان الاختبار والتجربة، واللام في قوله (للتقوى) لام العلة، والتقدير:

امتحان قلوبهم لأجل التقوى، أي لتكون فيها التقوى، أي ليكونوا أتقياء».

فيجوز أن يجعل الامتحان كناية عن تمكن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها، بحيث لا

يوجدون في حال غير متقين، وهي كناية تلويحية. ويجوز أن يجعل فعل (امتحان) مجازاً

مرسلاً عن العلم، علم الله أنهم متقون، وعليه فتكون اللام في قوله (للتقوى) متعلقة

بمحذوف حال من قلوب، أي كأنه للتقوى، فاللام للاختصاص».

و(أولئك) إشارة إلى الموصول تفخيماً لشأنه، وأنهم جديرون بالخبر المذكور بعده. انظر

الألوسی «روح المعاني»، مجلد ١٤، (٢٠٦/٢٦).

التقوى في القرآن الكريم

أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴿١﴾، وليس المقصود هو فقط خفض الصوت عنده، وإن كان مطلوباً تأدباً معه ﷺ حياً وكذلك ميتاً، كما طبقه عمر رضي الله عنه ^(٢)، بل خفض الصوت دليل السمع والطاعة، إذ لا يعقل أن يخفض المرء صوته عنده ويخالف أمره ونهيه، ويكون مع ذلك من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، ولكن كف الصوت عنده عنوان التسليم لأمره والائتبار بحكمه، ودليل الاتباع لهديه وشرعه ظاهراً وباطناً حال حياته، ولسنته وشريعته بعد موته، كما فهمه بعض أهل العلم ^(٣)، لذا ورد قول الحق -

(١) وقد رأيت الأستاذ/ سيد قطب أشار إلى مثل ذلك في تفسيره «في ظلال القرآن»، فيحسن ذكر لفظه. يقول - رحمه الله:

«فالتقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار، وبعد تخلص وتمحيص، فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنه يستحقها. والذين يغضون أصواتهم عند رسول عند رسول الله ﷺ قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة، هبة التقوى، وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم»، سيد قطب «في ظلال القرآن»، دار الشروق، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، (٦/ ٣٣٤٠).

(٢) روى ابن كثير في تفسيره، (٤/ ٢٠٧)، قال: روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

(٣) يقول الإمام القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٦/ ٣٠٧):

«المسألة الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمة حياً، وحرمة المأثورة بعد موته في الرفعة، مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرتفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به».

ويقول كذلك:

جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]، وقوله - سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم من ذلك أن رفع الصوت عنده صلى الله عليه وسلم سبب الهلاك وحبوط العمل، فما بالك بأزيد من ذلك من مخالفة أمره أو التخلف عن طلبه، فكانوا مضرب المثل في الأدب معه، إذ القلوب الممتلئة من تقوى الله تعالى لا يصدر منها حتى ولا رفع الصوت على المشرع ولا الشرع، إذ رفعه دليل التجرؤ واللامبالاة وقلة الأدب المنافي للخشية والتوقير النابع من تقواه - سبحانه.

فهذا ثابت بن قيس بن شماس^(١)، الصحابي الجليل، خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل الواقعي على ذلك، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره^(٢)، عن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي.. ..) إلى قوله تعالى: (...وأنتم تشعرون)، جلس في بيته حزينا ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق

« الخامسة: وليس الغرض يرفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف ولا الاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون».

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن زهير الخزرجي المدني، يقال له خطيب الأنصار شهد أحداً وما بعدها من المشاهد وثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بشره بالجنة رضي الله عنه، قتل في موقعة اليمامة . انظر الإمام النووي «تهذيب الأسماء واللغات»، (١٣٩/١).

(٢) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٢٠٦-٢٠٧)، والرواية التي ذكرها هي رواية الإمام أحمد بن حنبل «مسند أنس» رقم (١٢٤٢٦)، طبعة بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، (ص ٨٧٥).

بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال ﷺ: «لا، بل من أهل الجنة». قال أنس رضي الله عنه: فكان نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة، كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تعودون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل ﷺ. فكانت هذه البشارة العظيمة لتلك القلوب التقية.

ويؤيد حديث النبي ﷺ هذا المعنى، وهو أن التقوى في القلب، فيقول ﷺ: «التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره - ثلاثاً - «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»^(١). وإذا كان أصل التقوى في القلوب، فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله ﷻ، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢). وليس معنى هذا ترك العمل في الظاهر، كما يظنه كثير من الناس في أيامنا هذه، إذ يحسب أن قلبه سليم ويترك واجبات الشرع ويفرط فيها، بحجة أن ربنا رب قلوب، وهو معنى لم يحظر علييال أحد من أهل العلم، لأن الحكم على الناس إنما هو بظاهر الشرع، فلو كانت قلوبهم سليمة كانت أعمالهم موافقة لما في هذه القلوب، وإلا كيف يدعى تاركو الصلاة - مثلاً - والواقعون في غير ذلك من نواهي الشرع تقوى قلوبهم؟ لذا يشير الحافظ ابن رجب في شرحه لحديث «إنني حرمت الظلم على نفسي»، فيقول - رحمه الله تعالى: «وفي هذا الكلام دليل

(١) الحديث رواه مسلم (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٣٦٣/٨).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (٢/٢٧٥-٢٧٦).

على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»، فأشار إلى صدره»^(١).

مما سبق، تتضح بجلاء مكانة القلب، وأنه محل تقوى الله تعالى، ومحل تمحيصه ونظره، فهو محل أنواره من التوحيد، مما يدفع المؤمنين للاهتمام بإصلاح قلوبهم بمزيد الطاعة والإخلاص لله تعالى، وتنقية القلوب مما يفسدها ويعكس صفوها ويطفأ نورها، سواء بمعاصي الجوارح فإنها سبب ظلام القلب وقسوته كما قال النبي ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنباً نكتت في القلب نكتة سوداء، فإن تاب وأقلع صقلت، وإذا أذنب ذنباً آخر نكتت نكتة أخرى حتى يسود القلب، وذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. فإذا ما استحکم فساد القلب وسواده والران عليه صار قلباً ميتاً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه، فصار عنده الحقد باطلاً والباطل حقاً، ورأيته على أسوأ سبيل في السلوك والعادات والأخلاق، وهو مشاهد في دنيا الناس اليوم.

وكذلك يسود القلب بما يرتكب من معاص متعلقة به، كالحقد والحسد والغش وحب الدنيا وطول الأمل والنفاق والرياء وترك الإخلاص، وهي أنكى وأشد.

كان إذاً القلب وتقواه والاهتمام به سبب كل سعادة ورفعة في الأولى والآخرة.

ولا يفوتنا أن نشير إلى احتمال آخر في حديث النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»، ويشير إلى صدره، «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، وهذا الاحتمال

(١) المصدر السابق، (٢/٤٧).

التقوى في القرآن الكريم

لمعنى كلامه ﷺ أنه لا بد أن يسود علاقة المسلم بأخيه المسلم علاقة التقوى. قال بعضهم: ويحتمل أن يكون معناه محل التقوى هو القلب، فمن كان في قلبه التقوى فلا يحقر مسلماً، لأن المتقى لا يحقر مسلماً.^(١)

والموضع الثانى من المواضع التي وردت التقوى فيها مضافة إلى القلب هو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وقد أخرجنا ذكرها للمعنى الجديد المتعلق بتقوى القلب، وهو تعظيم شعائر الله تعالى، فإذا كنا قلنا قبلاً: إن تقوى القلب وبره تظهر على الجوارح والعكس كذلك، فإن الآية الكريمة توضح بغير لبس أن تعظيم شعائر الله - جل ذكره - أعظم الأدلة على تقوى القلب، فلا يكون القلب قد حلتته تقوى الله - سبحانه - وهو لا يعظم شعائره ومعالم دينه وأوامره ونواهيه، فإن ذلك أخص خصائص المتقين لربهم.

ترى المستهزئ بذلك، التارك لأوامره، الواقع في نواهيه، المسر بمعصيته أو الجاهر بها، تراه الله تقياً؟ ولقد ضربت الآية المثل في تعظيم تلك الشعائر وإجلال تلك الحرمات، بتعظيم البدن التي ينحرفها الحاج في حجه، تقرباً إلى الله بها رجاء الثواب، وإطعاماً للبايس الفقير. وهذا الفعل، وإن كان في نظر المرء يمكن أن يكون هناك ما هو أفضل منه في جنسه أو من غير جنسه كما سنوضح، فقد أمر الشارع به، ليستخرج من القلوب تقواها، وليميز منها تعظيمها لأوامره، تنيهاً على غيره من الأوامر، وإرشاداً لها على تعظيم بقية معالم الدين صغيرها وكبيرها، إذ الكل من الله - تبارك وتعالى - المستحق للتعظيم والإكبار.

(١) انظر د. محمد أديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة وسير الصالحين»، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (١/١١٢-١١٣).

ولنرى تحليل الآية:

اسم الإشارة هنا مستعمل للفصل بين كلامين أو وجهين من كلام واحد، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض، فإذا أراد الخوض في غرض آخر قال: هذا وقد كان كذا وكذا، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكره بعده، إذا كان ما بعده لا يصلح خبراً، والمعنى: ذلك بيان أو ذكر، والمشهور استعمال هذا، كما في قوله تعالى: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغِينِ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴾ [ص: ٥٥]، وقول زهير:

هذا وليس كمن يعيا بخطبته وسط الندى إذا ما قائل نطقاً^(١)
وإنما أوتر استعمال ذلك للبعيد للدلالة على بعد المنزلة، كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

والشعائر جمع شعيرة، وهى المعلم الواضح، وشعائر الله لقب لمناسك الحج، وقيل: هى شرائع دينه تعالى.^(٢)

وهى بوزن (فعليلة)، إما بمعنى اسم الفاعل، أى مُشْعِرَةٌ معلّمة بما عينه الله، أو بمعنى مفعولة، أى مُشْعَرٌ بها تجعل ليشعُر بها الرائي، فعلى التفسير الأول تكون جملة ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ ... ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتِ اللَّهِ ... ﴾، وشعائر الله أخص من حرّمت الله، إذ الحرمة ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله بهذه الصفة فيحتمل أن يكون عاماً في جميع التكاليف، فعطفت عليها للعناية بالشعائر. وشعائر الله كل ما أمر الله بزيارته أو بفعل يوقع فيه مما أشعر الله الناس وقرره وشهره، ومنه الكعبة والصفاء والمروة وعرفة

(١) زهير بن أبى سلمى، ط دار بيروت ١٣٨٤هـ، ١٩١٤م، تحقيق أكرم البستانى.

(٢) انظر الألوسى «روح المعانى»، (١٠/٢٢١). والظاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»

والمشعر الحرام ونحوها من معالم الحج. وتطلق الشعيرة أيضاً على بدنة الهدى، قال تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، لأنهم يجعلون فيها شعاراً علامة على أنها نذرت للهدى.

وضمير ﴿فَإِنَّهَا﴾ عائد إلى شعائر الله المعظمة، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا مِّنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ جواب الشرط، أى تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب، على رأى الزمخشري^(١) ومن تبعه كالرازى، والبيضاوى^(٢) وأبى السعود^(٣)، وذهب البعض إلى أنها من تقوى القلوب^(٤)، وإضافة تقوى إلى القلوب لأن تعظيم الشعائر اعتقاد قلبى ينشأ عنه العمل. وتقوى القلوب أولى لموافقتها لصريح الكتاب الكريم.

(١) الزمخشري «الكشاف»، (٣/٣١-٣٣). و عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى «المحرر الوجيز»، تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، (٤/١٢١). والرازى «مفاتيح الغيب»، (١١/٢٧٣). والبيضاوى «أسرار التنزيل»، (٤/١٢٥). وأبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/١٨).

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى الشيزارى الشافعى قاض عالم بالفقه والتفسير والأصليين والعربية والمنطق والحديث وأصولى وله تصانيف كثيرة منها منهاج الوصول إلى علم الأصول، وتوفى عام ٦٨٥هـ/١٢٨م. انظر ابن السبكى «طبقات الشافعية»، (٥/٥٩).

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادى الحنفى، ولد رحمه الله عام ٨٩٨هـ، فقيه، أصولى، مفسر، شاعر، عارف باللغات العربية والفارسية والتركية، وتوفى فى ٥ من جمادى الأولى ٩٨٢هـ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى بالقسطنطينية، وله مؤلفات كثيرة منها «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». انظر الشوكانى «البدر الطالع»، (١/٢٦١).

(٤) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/٢٥٧).

وإنما ذكرت القلوب، كما يقول الإمام الرازي^(١): «لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه، ولكن لما كان قلبه خالياً عنها، لا يكون مجدداً في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يباليغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص»، ويكاد يكون هذا الكلام كلام أبي حيان^(٢) في «البحر المحيط» بنصه. ويقول الزمخشري: «وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء»^(٣).

لا ريب إذن أن تعظيم دين الله تعالى ومعاله هو من عمل أصحاب القلوب التقية. ونلاحظ أن هذا الموضوع بالذات من مواضع التقوى سيق في موضوع الحج ومناسكه وأعماله، لأن كثيراً من أعمال الحج - إن لم يكن كلها - لا مدخل للتعليل العقلي فيها، وإنما تعتمد على ما وقر في القلب من الإيمان وما تمكن فيه من التقوى كالطواف، والسعى سبعاً، ورمى الجمار سبعاً، وحلق الشعر أو تقصيره، ونحر البدن. لذا وجدنا عمر رضي الله عنه يقول في تقبيل الحجر: «أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك»^(٤). فتعظيم هذه الأمور والأفعال والأماكن، وإن لم يعلم المرء علتها، لها حكم لا

(١) انظر الفخر الرازي «مفاتيح الغيب»، (١١/٢٧٣).

(٢) أبو حيان الأندلسي «البحر المحيط»، دار الفكر بيروت، طبعة عام ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، (٧/٥٠٦). وأبو حيان هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الجياني الأندلسي الشهير بأبي حيان، ولد عام ٧٥٤هـ، وهو أديب نحوي لغوي مفسر له مصنفات عديدة تزيد على الخمسين أشهرها «البحر المحيط في تفسير القرآن» وتوفي بالقاهرة في ٧٤٥هـ. انظر ابن حجر «الدرر الكامنة» (٤/٣٠٢-٣١٠).

(٣) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٣/٣٣).

(٤) حديث عمر رواه البخاري (١٦٠٥). وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (٣/٤٧١)، ورواه مسلم (٢٤٨). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٢/٢٠).

شك، دليل تقوى القلب والتسليم لأمر الرب - جل شأنه، وهو فيض الإيمان وبرد اليقين.

ومن هنا رأينا تطبيق ذلك في عمل الصحابة وأمر النبي ﷺ، فمعنى تعظيم البدن - لكونها من شعائر الله سبحانه - كما ذكر المفسرون هو أن تُختار حسناً سماناً غالبية الأثمان، لأن اختيارها على غير ذلك يدل عليالبخل والشح والحرص على الدنيا، وغير ذلك من المعاني السيئة المنافية للتقوى، أن يضمن المرء على نفسه بالثواب، ويخجل على الله تعالى بما لله الذي جعله مستخلفاً فيه، فأى تقوى هذه إذا؟ لذا روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل في أنفه برة من ذهب^(١)، وكان ابن عمر ﷺ يسوق البدن مجللة بالقباطى، فيتصدق بلحومها وبجلالها.

وقد يفكر المؤمن في أنه لو أهدى عدداً أكبر من البدن والهدايا بدلاً من عدد أقل أحسن وأثمن وأعلى لكان أولى، فإن الرد جاء من النبي ﷺ نفسه لعمر ﷺ فقد أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار، وسأل النبي ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدناً، فنهاه عن ذلك وقال: «بل أهدها».^(٢) يقول الأستاذ/ سيد قطب في ذلك: «ويربط - أى السياق - بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب، إذ التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره، وقد كان المسلمون على عهد النبي ﷺ يغالون في الهدى ويختارونه سميناً غالباً، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله مدفوعين بتقوى الله...، والناقة النجبية التي أهديت لعمر ﷺ لم يكن يريد أن يضمن بقيمتها، بل كان يريد أن يبيعها فيشترى بها نوقاً أو بقرأً للذبح، فشاء رسول الله ﷺ أن يضحى بالنجبية ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها، ولا يستبدل بها

(١) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٣/ ٣٣).

(٢) المصدر السابق، (٣/ ٣٢).

نوفاً كثيرة قد تعطى لهما أكثر، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل، والقيمة الشعورية مقصودة ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، وهذا هو المعنى الذي لحظه رسول الله ﷺ وهو يقول لعمر ﷺ: «انحرها إياها»، هي بذاتها لا سواها»⁽¹⁾.

هذه هي المعاني التي أكد عليها الرسول ﷺ لتدل على تقوى القلوب، وحمل فيها أهل الإيمان على أفضل البذل.

تلك تقوى القلوب، وأثرها في تعظيم الشرع ومعامله، وأثرها في هذا السلوك الراشد الذي تستضيء به حياة الأمة، ويستنير طريقها إلى التقدم والرفق.⁽²⁾

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٤/٤٢٢).

(٢) فإذا نفشت هذه الأخلاق وجدنا الكل يراعى الله تعالى، عليه رقيب منه، مطلع على عمله، ناظر وشاهد لسره وعلنه، فرأينا حينئذ المدرس يراعى ربه، والطبيب يراعى ربه، والحاكم والمحكوم كل يراعى ربه، فيتقن كل واحد عمله، ويتفوق كل واحد في فنه، ويتقدم كل صانع في صنعته، ترى الأمة حالئذ وقد تقدمت وخرجت عما هي فيه من الفساد والإفساد.

المطلب السادس لباس التقوى

وما زال البحث متصلاً حول جوانب التقوى المختلفة، ليكتمل بيانها في نفوس المؤمنين، وواقعهم ومجتمعهم. فإذا كان للتقوى محل وهو القلب، ولها كلمتها كلمة التقوى، ولها مظاهرها التي تنبئ عنها من تعظيم شعائر الله ﷻ، فإن لها لباساً يتميز به أصحابها، إذا رُؤوا ذُكِرَ الله تعالى، فرؤيتهم تذكر به، وسلوكهم يدعو إليه.

إن الآية التي وصلنا إليها من مواضع التقوى هي قول الحق - جل اسمه: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِي سَوْءَ تِكْمٍ وَرِدِشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ويحسن في البداية أن نقل هنا كلام الأستاذ/ سيد قطب^(١)، لنفاسته ولتصويره للواقع، ولكن مع تلخيصه لطوله. يقول - رحمه الله - قبل أن يبدأ في تفسير الآية - ما ملخصه: وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها - قصة آدم عليه السلام كما سيجيء - تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته، وهو الحياء من التعرى وانكشاف سواته:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تِهْمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ تِهْمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِي سَوْءَ تِكْمٍ وَرِدِشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

(1) الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٣/ ١٢٧٥) وما بعدها.

﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ مَا كَانَا عَلَيْهِمَا ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وكلها توحى بأهمية هذه المسألة وعمقها في الفطرة البشرية، فاللباس وستر العورة زينة للإنسان وستر لعوراتهِ الجسدية. كما أن التقوى لباس وستر لعوراتهِ النفسية. والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوءاتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء من الله تعالى، هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته وخصائص إنسانيته التي بها صار إنساناً، وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريد به من نزع لباسه وكشف سوائه.

إن العري فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً، والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة، والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأما في الجاهلية الحديثة «التقدمية» فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها وينقلهم إلى مستوى «الحضارة» بمفهومها الإسلامي الذي يستهدف استنفاد خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها.

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحى بهذه القيم والموازن الأصلية وتبينها خير بيان.

وسوف نعود - إن شاء الله - لتكملة كلامه بعد النظر في الآيات.

ونلاحظ أن الخطاب موجه إلى جميع ذرية آدم، لا يختص بأحد دون أحد أو قوم دون قوم أو أهل ملة دون غيرهم، ليوحي بأن هذا الأمر وهو اللباس وتغطية السوءات يجب على كل الناس، لأن ذلك هو الفطرة والطبع السليم، وغير ذلك من التبرج والعري وإظهار مفاتن المرأة إنما هو من غواية الشيطان

وفتنته لبنى آدم جميعاً، إذ ذلك ما حدث مع أبى البشرية كلها. وهذا الخطاب بهذا المعنى يشمل المؤمنين والمشركين، ولكن الحظ الأوفى منه للمشركين، لأن حظ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنهم موافقون في شئوهم لمرضاة ربهم، وأما حظ المشركين فهو الإنذار بأنهم كافرون بنعمة ربهم معرضون لسخطه وعقابه، لكونه لم يستقبلوا هذه النعمة وتلك المنة بما تستوجه من طاعة الله تعالى والائتثار بأمره وعدم الانسياق مع وسوسة الشيطان وإغوائه، ففسقوا عن أمر ربهم وأفسدوا في الأرض بهذه الصنوف من العرى والتبرج التي كانت سبباً في إفساد غيرهم وإخراجهم عن تقوى الله - جل وعلا.

وابتدى الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بالاهتمام البالغ بشراشر قلوبهم.

وكان لخطابهم بينى آدم وقعه العجيب بعد ذكر قصة آدم عليه السلام وما لقيه من وسوسة الشيطان ليبين لهم ما حدث لأبيهم مع عدوه وعدوهم، فتحترس الذرية من الوقوع في شركه، إذ شأن الذرية أن تثار لأبائها وتعادى أعدائهم.^(١)

ونرى في التفسير القرآنى ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ تشرifaً لهذا المظهر، حيث عبر عن تيسير اللباس لهم وإهامهم إياه بالإنزال من عند الله، ومن ثم كان أول مظاهر الحضارة الإنسانية، أو كان الذي على آدم من اللباس نزل به من الجنة، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص. وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية وهى أول أصول الإسلام، وأنه مما كرم الله به النوع الإنسانى منذ ظهوره في الأرض، وفيه تعريض بالمشركين الذين خرجوا عن هذا التكريم ومسحوا تلك الفطرة، وجعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجوا عراة، وتعريض بغيرهم ممن جعله تقدماً ورقياً، بل هو ارتكاس في حمأة الجاهلية،

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧٢ / ٨).

وقد كان الأمم يحتفلون في أعياد أديانهم بأحسن اللباس، كما حكى عن موسى عليه السلام وأهل مصر: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ [طه: ٥٩]، فكان في اللباس تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً. (1)

أما قوله تعالى: ﴿ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا ﴾ فيقول الزمخشري: «أى أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سوءاتكم ولباساً يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾». (2)

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾، فمنهم من قرأها بالنصب، ومنهم من قرأها بالرفع، ولكل توجيه بديع. أما قراءة النصب فبالعطف على لباساً وريشاً، ويكون المعنى: أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم ولباساً يزينكم ولباساً للوقاية أى تتقون به - ويتعين أى يكون لباساً حقيقة - كلبوس الحرب من الدروع والجواش والمغافر، وذلك كقوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾. والإشارة في قوله: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ تعود إلى هذا الملبوس المذكور، أى خير أعطاه الله بنى آدم، وتكون الجملة مستأنفة حينئذ.

وأما على قراءة الرفع فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا ﴾، والاختيار هنا أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله تعالى وخشيته، لأن هذا المعنى أليق بالرفع، ويكون استطراداً للتحريض والحث على تقوى الله فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه، وهو التقوى.

وأطلق على التقوى اللباس، إما بتخييلها بلباس يلبس، وإما بتشبيهه ملازمة

(١) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٧٢-٧٤).

(٢) الزمخشري «الكشاف»، (٢/ ٥٨).

التقوى في القرآن الكريم

تقوى الله بملازمة اللباس لباسه، كقوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾^(١)، مع ما يحسن هذا الإطلاق من المشاكلة، وهذا المعنى الرفع أليق به، ويكون استطراداً للتحريض على تقوى الله، فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة لتعظيم المشار إليه.

وقد رجح ذلك الإمام الطبري - رحمه الله - فقال: «وأولى الأقوال بالصحة^(٢) في تأويل قوله: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ استشعار النفوس تقوى الله في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته. وذلك يجمع الإيثار والعمل الصالح والحياء وخشية الله والسمت الحسن، لأن من اتقى الله كان به مؤمناً وبها أمر به عاملاً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يرى عند ما يكرهه من عباده مستحيماً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورؤيت عليه بهجة الإيمان ونوره».

ثم يعلل لهذا الاختيار - رحمه الله تعالى - بأن كل من ادرع شيئاً واحتبى به حتى يرى هو أو أثره عليه فهو له لباس، ولذلك جعل - جل ثناؤه - الرجال

(1) انظر: الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨ / ٨٥). وأضاف الزمخشري «الكشاف»، (٢ / ٥٨-٥٩): «كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسوأة، لأن مواراة السوأة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة».

(2) الطبري «جامع البيان»، (٨ / ١١٢). وقد ذهب إلى هذا القول لأن المفسرين فسروا لباس التقوى بعدة أقوال جمعها ابن الجوزي في عشرة أقوال. قال رحمه الله، (٣ / ١٨٢-١٨٣)، في زاد المسير: «وللمفسرين في (لباس التقوى) عشرة أقوال: أحدها: أنه السمت الحسن. قاله عثمان بن عفان، ورواه الذيال بن عمرو عن ابن عباس. والثاني: العمل الصالح. رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الإيثار. قاله قتادة وابن جريح والسدي. فعلى هذا سمي لباس التقوى لأنه يقى العذاب... الخ».

للنساء لباساً، وهن لهم لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً». ونظرة أخرى على قوله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾، يتضح لنا أن هذه الصيغة من صيغ العموم، ومن ثم يكون المعنى أن كل لباس يكون فيه تقوى الله ﷻ حسياً كان أو معنوياً فهو خير، فالمؤمن إذاً مطالب بأن تكون التقوى زيه الذي يرتديه، وثيابه التي يتدثر بها. فما كان مقرباً إلى الله تعالى من الزى والملبس فهو تقوى لله يحافظ عليها أهل الإيمان. فمثلاً، نهى النبي ﷺ عن التشبه بالكفرة مطلقاً في زيمهم ولباسهم وسلوكهم واعتقاداتهم، وغيره مما يختصون به، قائلاً: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١)، فيكون التشبه بهم في الزى والمظهر مما يدخل في هذا الباب من لباس التقوى، أى: إن لباسهم مخالف للتقوى وعليه يلزم مخالفتهم، والتزى والظهور بما كان يجب النبي ﷺ هو التقوى والأحب والأقرب إلى الله - سبحانه، علاوة على ما في التشبه بهم من الإحساس بعقدة النقص المظهرة للتخلف، والمزرية بماضى الأمة وهويتها وتراثها، والتي نراها من هؤلاء المتفرنجين. وهذا التقليد من هؤلاء يدل على ميلهم إلى ما نهى الله عنه من مودة الكفار وموالاتهم وتفضيلهم على بنى جلدتهم، والله - جل وعلا - حذرنا ذلك بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «خالفوا المشركين»^(٢)، وهو في أمور متعددة، مما يدل على اطراد طلب المخالفة وشموله، وهو في الملبس لا كما يقال في الجوهر، لأن الجوهر - والنهي عن التشبه بالكفرة فيه معلوم - لا يحتاج إلى بيان أو تنبيه،

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في تخريج أحاديث «المشكاة»، (٤٣٤٧).

(٢) هكذا بصيغة الأمر. والحديث رواه مسلم (٢٥٩). وانظر النووي «شرح صحيح

وكانه ﷺ يستشرف الغيب بإخباره عن تردى هذه الأمة حين تخرج عن أوامر ربها وسنة نبيها وتتبع الكفرة وتقلدهم وتسير سير الذليل الحقيير المنكسر وراء سيده المنتصر، فيقول: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضبٍ دخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(١) وهذا الواقع الكريه لا تحطئه عين، حتى عد رجعيًا ومتخلفاً ومقدوفاً بالسيل من الاتهامات من لا يسير في هذا السبيل ولا ينهج هذا النهج النكد.

والمأمل في الآية لا بد أن يقف متفحصاً عند قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، فهي طلب التذكر وإعمال العقل والفكر ومدى ما أدت إليه هذه المخالفة لتلك الآيات - التي لا بد أن تحمل على تقوى الله - من واقع مرينبي عن عظيم الخطر في مخالفة أمر الله تعالى، ومعاندة العقل، ومصادمة الفطرة، ومخالفة السنة، وما في ذلك من خزي وهوان في الدنيا والآخرة.

ونعود إلى كلام الأستاذ/ سيد قطب^(٢) كما وعدنا، يقول - رحمه الله: «فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى. كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان. فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه. ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعري وأن يدعو إلى العرى، العرى من الحياء والتقوى، والعرى من اللباس وكشف السوأة!».

(١) رواه البخارى (٣٤٥٦). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٦/٤٩٥). ورواه

مسلم (٢٦٦٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/٤٧٢).

(٢) الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٣/١٢٧٨-١٢٧٩).

المطلب السابع كلمة التقوى

ونواصل التعرف على بقية مواضع التقوى، لنستكمل البحث، من هذه المواضع «كلمة التقوى» وقد وردت في قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، فإذا كان للتقوى محل ولها لباس، وتعظيم للشعائر يدل عليها فإن لها كلمة كذلك، وجمهور المفسرين^(١) هنا على أن كلمة التقوى هنا هي قوله «لا إله إلا الله»، وذكر بعضهم أنها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، أو «لا إله إلا الله والله أكبر»، أو «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، أو هي «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقيل عن مجاهد إنها الإخلاص، ونقل عن الزهري^(٢) الوفاء بالعهد، هذا مجمل أقوال المفسرين، وهي أقوال لا يملك الباحث التسليم بها، إذ معناها أن الله ﷻ أَلْزَمَهُمْ قول «لا إله إلا الله»، وهذا القول هم ملتزموه من قبل ومن بعد: ضحوا فيه بأنفسهم وأهليهم وأمواهم

(٢) وانظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ١١، (٢/٦٦-٦٧). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٨، (١٦/٢٨٩). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٤/٣٤٥). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/١٩٤). والزنجشري «الكشاف»، (٣/٤٦٧). والإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي «زاد المسير في علم التفسير»، (٧/٤٤٢-٤٤٣) الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي. وأبو حيان «البحر المحيط»، (٩/٤٩٧). والألوسي «وروح المعاني»، مجلد ١٤، (٢٦/١٧٨-١٨٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤-٢٥/١٩٥-١٩٧). وغيرها.

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ولد عام ٥٨هـ، ٦٧٨م، محدث، حافظ، فقيه، مؤرخ، من أهل المدينة وتوفي رحمه الله ١٢٤هـ، له تصنيف في مغازي رسول الله ﷺ، انظر حاجي خليفة «كشف الظنون»، (ص ١٤٦-١٤٧).

وأوطنهم، كذلك فإن القول بأنهم أحق بتلك الكلمة من غيرهم قول لا يظهر له وجه أو ميزة!

ولم يوجد من المفسرين والمحققين ممن قرأت لهم من أشار إلى هذا الاعتراض، أو بمعنى أدق أشار إلى بعض تلك المعانى وإن لم يورد فيه إشكالاً أصلاً إلا صاحب «التحرير والتنوير» العلامة ابن عاشور، وهاك ملخص تحقيقه - رحمه الله: إن كلمة التقوى إن حملت على ظاهر المعنى كانت من قبيل الألفاظ، وإطلاق الكلمة على الكلام شائع، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وفسرت هنا بقول «لا إله إلا الله». وإلزامهم إياها معناه أنه قدر لهم الثبات عليها قولاً بلفظها، وعملاً بمدلولها؛ إذ فائدة الكلام حصول معناه، وإضافة كلمة إلى التقوى بهذا التفسير حقيقية، ومعناها أن كلمة الشهادة أصل التقوى، لأن أساس التقوى اجتناب الأصنام من إضافة السبب إلى المسبب، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى. وأفاد - رحمه الله - أن الأسانيد التي رفعت تفسير الكلمة بـ «لا إله إلا الله» إلى الرسول ﷺ كلها ضعيفة، ولكنها وردت عن كثير من الصحابة، وهذا هو الاحتمال الأول.

والاحتمال الثاني: أن ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ على غير ظاهر معناها، فتكون إضافتها بيانية، أو تطلق على حقيقة الشيء الأول، وتكون مقحمة كإقحام اسم في قول لبيد:

ومنه قوله تعالى: ﴿ تَبَرَّكَ أَتَمُّ رَبِّكَ ﴾ على أحد التفسيرين، ويكون المعنى: وألزمهم التقوى، والثاني وهو إطلاقها على حقيقة الشيء، كقول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهذى إلى غرائب الأشعار
ويؤيده ما نقل عن مجاهد أنه فسرها بالإخلاص. فيكون المعنى على هذا الاحتمال الثاني أنهم تخلقوا بالتقوى لا يفارقونها، واستعير الإلزام لدوام

المقارنة. وهذا الاحتمال لا يعارض تفسير كلمة التقوى بالشهادة وهو الاحتمال الأول، لأنه تفسير للتقوى بجزء من التقوى هو أهم جزئياتها: وهو الشهادة.^(١)

وآخر ما أشار إليه أهل التفسير لكلمة التقوى هو أنها الوفاء بالعهد، ويكون للإلزام. هنا معنى جديد هو الإيجاب، أي أمر المؤمنين أن يفوا بعهدهم مع المشركين في صلح الحديبية لذلك لم ينقض المسلمون العهد حتى كان المشركون هم الذين نقضوه.

والذي أذهب إليه - بعد عرض ما سبق من أقوال المفسرين - متوائماً مع فهمي للسياق، مستنداً إلى بعض ما ذكرته من إشارات أهل العلم، أن كلمة التقوى هنا عامة لأنها مفرد مضاف إلى معرفة فيكون من صيغ العموم، فتشمل كلمة التقوى حينئذ كل ألفاظ التقوى، أي ما فيه طاعة الله واتقاء غضبه، وليس الألفاظ فحسب بل الالتزام بمعناها والثبات عليها، ويكون المعنى: أن الله تعالى ألزم أهل الإيمان في كل ألفاظهم تقوى الله تعالى وثبتهم، أو يجب أن يشبوا على تلك المعاني الحققة لألفاظ التقوى، فلا يصدر منهم إلا ما فيه تقوى الله تعالى قولاً وعملاً، لأنهم أحق بذلك شرعاً وقدرًا، لما علم الله فيهم من محبتهم له، ومن خشيتهم لله ﷻ ومهابتهم واقتدائهم بالنبي ﷺ أن يلفظوا بأقوال لا تقوى فيها، أو أن يتلفظوا بأقوال التقوى ولا يعملوا بمقتضاها، أو يداوموا ويشبوا عليها ثباتاً على المبدأ وتمسكاً بالواجب الحق. والآية تحمل - كما أشار الأستاذ/ سيد قطب - الشناء على أصحاب النبي ﷺ حيث ألزمهم كلمة التقوى بأحقيتهم... الخ.^(٢) فلا يجوز للمؤمنين أن يخرجوا في ألفاظهم وأقوالهم عن

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦ /).

(٢) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٦ / ٣٣٢٩).

تقوى الله ﷻ كما قال: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١)، فكان قول الخير أو الصمت علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونلاحظ أن القرآن الكريم عبر بالكلمة الطيبة والكلمة الحبيثة، وأن الكلمة الطيبة هي كلمة التقوى على ما أشرنا، وعكسها الكلمة الخبيثة، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [١٤] تُوْتَى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [١٥] وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ [١٦] يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

ويتضح من قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ... ﴾ أن جزء كلمة التقوى نطقاً والتزاماً، والثبات على ذلك هو تثبيت أصحابها بالقول الثابت في الحياة الدنيا، بأن ييسر الله لهم الأقوال الإلهية على وجهها، فإن (ال) في ﴿ بِالْقَوْلِ ﴾ للاستغراق، والباء للسببية. وأن يدركوا دلائلها حتى تطمئن قلوبهم فلا يخامرها شك، فيصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزين، وعاملين غير مترددين. و﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ يشمل ما كان من أمرها مما يحتاج التثبيت لأهوالها وكرهها، وأول ذلك القبر. روى البخارى عن البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله»، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي

(١) رواه البخارى (٦٠١٨)، (٦١٣٦)، (٦٤٧٥). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (١٠/٤٤٥-٥٣٢)، (١١/٣٠٨). ورواه مسلم (٤٧). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١/٢٩٣).

أَحْيَاةَ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴿١﴾، وهو الجزء الذي من جنس العمل والذي طالما أكد عليه القرآن الكريم والسنة المشرفة.

(١) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ٧، (١١ / ١٤٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢ / ٥٣١). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٢ / ٢٢٦-٢٢٧).

المطلب الثامن خير الزاد التقوى

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾

[البقرة: ١٩٧]:

التزود إعداد الزاد، وهو الطعام الذي يحمله المسافر، وهو مستعار للإكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء، شبه بإعداد المسافر الزاد لسفره بناءً على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت. قال الأعشى^(١):

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت أن لا تكون كمثلهم وأنت لم ترصد بما كان أرصدا

هذا في المعنى المجازي للتزود، ويجوز استعماله في معناه الحقيقي على وجه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، فيكون التزود أمراً بإعداد الزاد من الطعام وغيره، ويكون تعريضاً كما في سبب نزول الآية بقوم من أهل اليمن يجنون بيت الله بغير زاد، يقولون: نحن متوكلون على الله، كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فيكونون كلاً على الناس ثقلاء عليهم، فنبههم بأن خير الزاد ما يقيهم السؤال ويحفظهم من أن يكونوا ثقلاء على الناس، فإن ذلك من التقوى، لأن فيه صيانة ماء الوجه والعرض.^(٢)

وهكذا يتضح أن التقوى زاد المؤمن في سفره في دنياه، وسفره إلى آخرته^(٣)،

(١) ميمون بن قيس «ديوان الأعشى»، دار صادر بيروت، (ص ٤٦).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والنوير»، (٢/ ٢٣٥-٢٣٦). وانظر العلامة الآلوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٣٠). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢/ ٤١١).

(٣) يقول الإمام الرازى في مقاتيح الغيب، (٣/ ١٨٩)، ما حاصله: «وتحقيق الكلام أن الإنسان له سفران، سفر في الدنيا يتزود له الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا لا بد له فيه من زاد هو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد الأخير خير

وهي إشارة أيضاً إلى لزوم استصحاب التقوى على كل حال من أحوال المؤمن سافراً وحضراً وكل ما كان فيه تقوى لله ﷻ حتى لو كان زاداً يأكله وشراباً يشربه فعليه أن يتزوده، فهو أقرب إلى الله وأحب إليه سبحانه، بل كل شأن من شئونه ولو كان مباحاً كالطعام والشراب لا ينبغي أن يخلية عن التقوى، فهو دليل التعلق بالله تعالى والالتزام بشرعه، ودليل على أن كل حركة وسكنه من المؤمن إنما هي لله تعالى، كما قال: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وهناك ملحوظة، وهي أن المرء لما كان مسافراً إلى الآخرة في كل أوقاته، وأن رحيله إليها يمكن أن يتم بين لحظة وأخرى، فإن المؤمن الذي يمه أمر آخرته ينبغي أن يكون مشغولاً في كل أوقاته بإعداد زاد الرحيل، لأنه غير منقطع السفر حتى يصل، فلا يضيع من وقته شيئاً في غير تقوى الله تعالى في أمر معاده ومعاشه، يضمن بأنفاسه أن تضيع سدى بغير فائدة يرجو ثوابها في دينه ودنياه.

ولا يقدر هذا الأمر وذلك الخطر حق قدره إلا من أكرمه الله تعالى باستخدام عقله وبإعمال فكره ونظره في حاله في الدنيا وما هو مقدم عليه من أمر الآخرة، لذلك رأينا الآية الكريمة تحتم بقول الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، أي واشتغلوا بتقوى أصحاب العقول، لأن الأبواب جمع لب وهو العقل، واللب الخالص من كل شيء، وكأن مقتضى العقل الخالص عن

من الأول لوجوه، منها أن زاد الدنيا يخلص من عذاب موهوم ومنقطع وزاد الآخرة يخلص من عذاب دائم ومتيقن، وأن زاد الدنيا يوصل إلى شهوة النفس وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس، وأن الدنيا وزادها في ادبار وانقضاء وزاد الآخرة يوصلك إليها وهي كل ساعة في الإقبال والقرب والوصول. فثبت بما ذكرنا أن خير الزاد التقوى» ١.هـ. ويمثل ذلك أشار الخازن في تفسيره.

الشوائب شوائب الهوى وغيره تقوى الله سبحانه وتعالى. ^(١) يقول ابن عطية ^(٢) في المحرر الوجيز: «وخص أولو الألباب بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل، لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكاليف فالنداء بـ(أولى الألباب) عام لجميع المكلفين».

وقد يلحظ المرء تكراراً في الآية، فبعد الحث على التقوى أمر بها مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، ولكن التحقيق أنه ليس هناك تكرار، لأنه حث على الإخلاص بعد الحث على التقوى.

ويوضح البيضاوى المعنى، فيقول - رحمه الله: « قضية اللب خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم أن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه». ^(٣)

(١) انظر الألوسى «روح المعاني»، (٢/١٣٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/٢٣٦). والرازى «مفاتيح الغيب»، (٣/١٩٠).

(٢) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/٢٧٤).

(٣) البيضاوى «أنوار التنزيل»، (١/٤٨٣). وهذا ما ذكره أبو السعود بنصه في «إرشاد العقل السليم»، (١/٢٤٤).

المطلب التاسع بقية مواضع التقوى

واستكمالاً للبحث لابد من الإشارة إلى بقية مواضع التقوى في القرآن الكريم، لتكتمل صورة التقوى، ونستأنف بهذه الآية الكريمة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]:

وحدث التقوى وزادها يدفع بنا إلى بيوت الله تعالى، وهي المساجد، حيث تنزل الرحمة وتحط السكينة وتحف الملائكة، وفيها يستطيع المرء المؤمن أى يحصل التقوى، وأن يجهز منه ما يمكنه من مواصلة رحلة السفر إلى الآخرة.

وللمسجد في الإسلام أهميته القصوى، فهو المدرسة التي خرجت وتخرج قادة الإنسانية ورواد النهضة وفرسان الحق، فكان المسجد أول ما أسس النبي ﷺ عند وصوله للمدينة، لعلمه وإعلامه بعظم منزلته في بناء الأمة وتقوية الصلة بالله تعالى وإيقاظ الضمير وشحن القلوب بمادة التقوى، حيث تعلم العلم النافع والقيام بالعمل الصالح من ذكر وقراءة للقرآن، ومن قيام وصلاة ومن اعتكاف ومجاهدة، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعلم الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وكذلك فيه يتم النظر في مصالح المسلمين وجمع صدقاتهم، وعقد ألويتهم وخروج جيوشهم ناشرة لواء الخير والعدل والسلام، بتعبيد الناس لرب العالمين وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وفيه علاوة على ذلك الإصلاح بين الناس وجمع شملهم وتوحيد صفوفهم وإظهار المساواة بينهم، لا فرق بين كبير وصغير ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، حيث الجميع أمام رب واحدٍ صفاً واحداً بكتابٍ واحدٍ وإمام واحد يرجون رحمته ويخافون عذابه. ^(١)

(1) انظر د. محمد سعيد رمضان البوطي «فقه السيرة»، (ص ١٥٢-١٥٣)، ١٣٩٨هـ.

فكان رسول الله ﷺ أول ما يبدأ يبدأ من بيت الله تعالى، وأول ما يرجع قبل رجوعه إلى أهله وبيته، يبدأ ببيت الله تعالى.^(١)

ولما تفتن المنافقون لفضل المسجد وخطره، هداهم شيطانهم إلى هذا التفكير الخبيث - الذي ما فتى المنافقون في كل عصر وزمان يستخدمونه - ليكيدوا للإسلام وأهله، وليحاربوا الله ورسوله، وليفرقوا به بين المؤمنين، ألا وهو مسجد الضرار، فبينوا مساجد لإيقاع الضرر - بل أعظم الضرر - بالإسلام والمسلمين، أو يحولوا المساجد إلى مساجد ضرار، ليخرجوا بها المسلمين عن تقوى الله تعالى، بتحريم ما أحل الله أو بتحليل ما حرم الله، وينشر الجهل والخزعبلات، وبإيقاع الفتنة بينهم والخلاف، وإلهائهم عن قضايا الأمة بفرعيات لا خطر للخلاف فيها، وشغلهم عن مهمات الأمور وقضايا الساعة والعودة إلى

١٩٧٨م، دار الفكر، الطبعة السادسة. يقول: «فقد أقبل رسول الله ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامي راسخ متماسك يتألف من هؤلاء المسلمين: الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة، فكان أول خطوة قام بها في سبيل هذا الأمر بناء المسجد. ولا غرو ولا عجب، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتبسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد وحبه... إلخ». وانظر الدكتور مهدي رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية»، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (ص ٢٩٣) وما بعدها. وكذا صفى الدين المباركفوري «الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)»، (ص ٢٠٥-٢٠٦)، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث.

(١) رواه البخارى (٤٤١٨). وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (٨/١١٤). ومسلم (٢٧٦٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/١٠٠) وما بعدها.

النبع الصافي في الكتاب والسنة وسير النبلاء من السلف الصالحين، حتى تبقى الأمة متخلفة لا قيمة لها ولا وزن في دنيا الناس، وهو ما يصبو إليه أعداء الأمة وأعداء الإسلام.

قام المنافقون في عهد رسول الله ﷺ فعلاً بهذا الفعل الهابط، فقاموا ببناء مجمع سموه مسجداً^(١)، ليكيدوا فيه لله ولرسوله وللمؤمنين، وتهيئته لكل أصحاب العداوة والحقد على الإسلام ورسوله والمسلمين. وكان عبد الله عمرو أبو عامر من أشرفهم في الجاهلية، تنصر وتعبد حتى سمى أبا عامر الراهب، ولما جاء الإسلام شرق به ريقه وناق وجاهر النبي ﷺ بالعداوة، وظاهر عليه الكفر واليهود. وبعد غزوة بدر ذهب إلى مكة وأقام فيها يجرس على النبي ﷺ.^(٢) فلما فتح الله مكة ذهب إلى الطائف، فلما فتحت الطائف ذهب إلى الروم يستنصر بهم على أهله وعشيرته، يجارب رسول الله ﷺ والمسلمين - وذلك ديدنهم؛ العمالة لأعداء أمتهم والاستنصار بهم ضد أهلهم ووطنهم - ووعدهم أن يأتي بجيش من الروم ليطردهم محمدًا وصحبه من المدينة، وأن يعدوا هذا المجمع إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق، كما سماه باللائق به رسول الله ﷺ.^(٣)

جاء المنافقون وطلبوا من النبي أن يصلى لهم في مسجدهم ويدعو لهم بالبركة حيث بنوه لذي العلة والحاجة والليله المطيرة، يملفون بالله كذباً إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، وكان قريباً من مسجد قباء إمعاناً في

(1) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/٥٠٢).

(2) وقال للنبي ﷺ: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم».

(3) وقد جاء في السير أن رسول الله ﷺ دعا على الكاذب أن يموت طريداً شريداً غريباً، فمات أبو عامر على هذا النحو لما فر إلى الشام، طريداً شريداً غريباً، فكان هو الفاسق الكاذب.

تفريق المؤمنين وتشتيتهم. كان رسول الله ﷺ متجهزاً لغزوة تبوك، فقال لهم: «إنا على سفر وحال شغل، عندما نرجع - إن شاء الله - نصلى فيه»، يريدون بصلاته فيه تحصيل مزية لمسجدهم تروج لمقصدهم الفاسد وهدفهم الأثيم.

وعند رجوع المصطفى ﷺ من تبوك قبيل دخوله المدينة جاءه النهى الحاسم من الله - جل وعلا: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، إنه مسجد لم يؤسس على التقوى، فأمر ﷺ عمار بن ياسر^(١) في نفر من أصحابه أن اذهبوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه. إنها المفاصلة بين الحق والباطل، ليس ثم أنصاف حلول تلتقى فيها التقوى مع عدمها في منتصف الطريق، لا تقم فيه أبداً، وحرقوه واهدموه.^(٢)

التقوى إذاً هي الفيصل بين ما كان لله تعالى فيبقى في الدنيا وله ذخره وثوابه يوم يقوم الأشهاد، وما كان لغيره فيهدم في الدنيا، ويوم القيامة يهوى بأصحابه في نار جهنم.^(٣)

(١) قال معظم المفسرون: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، فقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله...». وانظر لما سبق القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٥٣/٨). وابن جرير «جامع البيان»، مجلد ٧، (١٨/١١).

(٢) (لا تقم فيه) أى: للصلاة، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام. يقال: فلان يقوم الليل، أى يصلى، ومنه الحديث الصحيح: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)، القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٥٨/٨)، والألوسى «روح المعاني»، (٢٨/٧).

(٣) انظر الشيخ محمد الغزالي «فقه السيرة»، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، طبعة دار القلم، (ص ٤١٤-٤١٥). ود. محمد سعيد رمضان البوطي «فقه السيرة»، (ص ٣٢٤-٣٢٦). ود. مهدي رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية».

ثم جاء التوجيه الحاسم بالأسلوب المعجز: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. فنقف عند هذا الموضوع أولاً لنحلله، ثم نعود للموضع التالي للتقوى في هذه القصة.

اللام في قوله: ﴿لَمَسْجِدٍ﴾ لام القسم، وقيل: لام الابتداء، والمعنى: والله لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، وفيه تأكيد لمضمون الجملة. و(مسجد) مبتدأ، و﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ صفة، وخبره ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾.

و﴿فِيهِ رِجَالٌ مُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ صفة ثانية للمبتدأ جاءت بعد خبره على قول بعضهم، فبعد أن ذكر صفة المحل ذكر صفة الحال فيه، وعلى كل حال فيه تقرير وتحقيق لاستحقاق القيام فيه.

وهو حاصل كلام المفسرين^(١)، وفيه تتضح معاني كثيرة عند النظر الفاحص لهذا النص الكريم.

أول هذه المعاني: تبيين الله تعالى لصفات المسجد الذي يجب أن يقوم فيه النبي ﷺ وأتباعه، بعد أن نهاه أن يقوم في مسجد الضرار أبداً. وهذه الصفات تدور كلها حول التقوى و المتقين، لأن المسجد - كما أشرنا - هو المكان الذي يحصل فيه المرء على وجه الخصوص زاد التقوى المأمور به.

فأقسم المولى ابتداءً بنفسه - سبحانه - أن المسجد الذي يجب أن يقوم فيه هو المسجد المؤسس على التقوى، سواءً في النية والقصد من إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، أو من القيام بالشرع وإحياء السنة، أو من التعاون على البر

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، (١٠/٢٩). والعلامة أبا السعود «إرشاد

العقل السليم»، (٢/٤٤٧-٤٤٨). والعلامة الألوسي «روح المعاني»، (٧/٢٨).

والتقوى وتقوية الروابط وإحكام عرى الوحدة و التكافل والتراحم والمساواة بين المؤمنين، أو من مساعدتهم على تحصيل زاد آخرتهم بتوثيق الصلة بينهم وبين ربهم، أو بغير ذلك من أسس التقوى اللازمة لقيام بناء محكم متين.

ولفرط اهتمام الصحابة بمعرفة أماكن التقوى وجدنا سؤالهم عن أى المساجد أسس على التقوى من أول يوم؟ وهى مسألة تنازعها أهل العلم بناءً على أقوال الصحابة. قال في البحر المحيط: «قال ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين: المؤسس على التقوى مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة، وهو أولى لأن الموازنة بين مسجد قباء ومسجد الضرار أوقع منها بين مسجد الرسول. وروى أنه قال: «هو مسجدي هذا» لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، وإذا صح هذا النقل لم يمكن خلافه»^(١).

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/٥٠٤). والقول الأول قول الكشاف بحروفه، انظر (١٧٢/٢)، وتبعه البيضاوى، (٣/١٧٢)، وأبو السعود، (٢/٤٤٧)، والنسفى، (٢/١١١)، وذكر النيسابورى كلام الكشاف كذلك، مجلد٧، (١١/١٨) (على هامش الطبري). أما القول الثانى فترجيح ابن جرير، مجلد٧، (١١/٢١-٢٢)، وكذا ابن عطية، (٣/٨٢)، والقرطبى، (٨/٢٥٩-٢٦٠)، وهو ترجيح صديق خان في «فتح البيان»، (٤/١٩٧-١٩٨)، وسبقه الألوسى، (٧/٢٩).

وقول من قال: هو مسجد رسول الله ﷺ هو الأرجح - في نظر الباحث - لصحة الحديث الذي رواه مسلم: (هو مسجدي هذا)، فهو نص في المسألة، فلا نظر لخلافه، ويؤيده قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، والمسجد الذي قام فيه وداوم ﷺ مسجده المشرف. وأما قول من قال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ مُّحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ فهو صادق على رجال مسجد الرسول، بل هو من باب الأولى، أو هم الأنصار بغض النظر عن كونهم يصلون في قباء أو في مسجد الرسول ﷺ، ولا يعقل أن أهل قباء يصلون في قباء فقط، ولا يأتون مسجد النبي ﷺ صلاة معه وجهاداً وتعلماً واستفتاءً وغير ذلك!

ولم يقل - سبحانه - إنه أسس على التقوى فقط، وإنما أسس عليها من أول يوم قيامها، فقط وكأن ما أسس على غير التقوى من أول يوم ثم تبدلت أحوال القائمين عليه إلى التقوى أو تغيروا وتبدلوا بمتقين كذلك لا يزال المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم أفضل وأحق أن يقام فيه^(١)، وهذا يؤكد قيمة التقوى وعلو منزلتها، والله أعلم.

الصفة الثانية من الصفات التي تدعو المرء إلى أن يقوم في المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم: كون عمّاره من الذين يحبون أن يتطهروا، وعبر بالمحبة لأن الذي يجب شيئاً ممكناً يفعله لا محالة، فقصده بذلك التنويه بأنهم يتطهرون

=

وأما روايات الطهارة النازلة فيهم - أي أهل مسجد قباء - فروايات ضعيفة كما ذكر الألوسى وصديق خان، وقد جمع بعضهم بين القولين. وقال الألوسى وتبعه حسن خان: «وجمع الشريف السمهودي بين الأخبار، وسبقه إلى ذلك السهيلي، وقال: كل من المسجدين مراد، لأن كلاً منها أسس على التقوى من أول يوم. والسري في إجابته توهم السائل اختصاص مسجد قباء بمزية على هذا. ثم قال: ولا يخفى بعد هذا الجمع» أ.هـ. بتصرف. ورجح هذا الجمع العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٣٢ / ١٠)، حيث قال ما حاصله: «ووجه الجمع عندي في قوله ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ أي: المسجد الذي هذا صفته فيكون وصفاً كلياً انحصر في فردين: مسجد الرسول ومسجد قباء، فأيهما صلى فيه حال دعوته للصلاة في مسجد الضرار كان أحق وأجدر». وقال ابن كثير - رحمه الله، (٣٨٩ / ٢)، في الجمع بين القولين: «ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى».

(١) قال الإمام ابن كثير، (٣٩٠ / ٢): «دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة من أول يوم بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملامسة القاذورات».

تقرباً إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم لها، بحيث صارت الطهارة خلقاً لهم، فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.^(١) والطهارة تشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية من تطهير النفس من الذنوب والمعاصي بالتوبة والاستغفار، فتلك صفات مسجد التقوى، وهذه صفات أهله.

الثاني: بينت الآية السابقة بهذا التعبير وهو ﴿رَجَالٌ مُّتَّحِبُونَ﴾ أن يَتَطَهَّرُوا^(٢) أن المرء الذي يقصد تقوى الله فلا بد له من صحبة تعينه على ذلك، وتعاونه على إعداد زاده والعمل لآخرته، أو بمعنى آخر أن يقوم في المسجد الذي هذا أهله، فذلك أجدر أن يحقق هدفه من تقوى الله تعالى. وفي التعبير بكونهم رجالاً ما فيه من التنويه بشأنهم وإعلاء منزلتهم، وكفى به شرفاً، فمن هذه صفاتهم من طهارة القلب والنفس والبدن، ومن زكاء الفعل والقول هم الرجال.

الثالث: أن المعاني الجميلة في الآية ذلك الجزء الرائع الذي لا جزاء فوّه،

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٣/١٠).

(٢) قال المفسرون: هذه الآية نزلت في الأنصار. يقول صاحب «التحرير والتنوير» مختصراً هذه الأقوال: «وجملة ﴿فِيهِ رَجَالٌ مُّتَّحِبُونَ﴾ أن يَتَطَهَّرُوا^(٢) ثناء على مؤمنى الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قباء. وكان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء. وقد ذهب الإمام الفخر، (١٧٨/٨)، إلى أن الطهارة المراد منها التطهر عن الذنوب والمعاصي، وأن هذا القول متعين لازم لوجه: الأول: أن التطهر عن الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى واستحقاق ثوابه ومدحه. والثاني: أنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر بالله والتفريق بين المسلمين فوجب على كون هؤلاء على الضد من صفاتهم، وما ذاك إلا لكونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي. والثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر وقدر عند الله لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصي.

وهو محبة الله تعالى للمتطهرين، فإنهم لما أحبوا الطهارة أحبهم الله، والجزاء من جنس العمل، أو لما أحب المؤمن المتطهرين وقام معهم لله تعالى، تطهيراً لنفسه وإرضاءً لربه وتقوى له سبحانه، فإنه بذلك متعرض لمحبة الله له على قدر ما طهر نفسه وزكاها وحفظها ورعاها، أى بقدر ما حصل من تقوى الله ﴿إِنَّ اللَّهَ تُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

الرابع: أن الآية أشارت في المقام الأول إلى عظمة هذا الجليل - الرعيل الأول - من أصحاب الرسول ﷺ، حيث نوهت بهم وبشأنهم وبجميل صفاتهم بعظيم تقواهم لله ثم بمحبة الله - جل وعلا - لهم.

وفي المقابل ألمحت الآية إلى أهل النفاق والشك والارتياب، من سوء نيتهم وخبث طويتهم، وفساد قصدهم، فعرضت الآية بهم تعريضاً هتك أستارهم وفضح عداوتهم، حيث بينت أن مسجدهم لم يؤسس على التقوى، فكان حرياً بالمقاطعة والهدم والتحريق وعدم القيام فيه، وعرضت بمن فيه بأنهم غير متقين، حيث أنهم لا يحبون أن يتطهروا، يحبون الخبث والخبائث في القصد والنية والعمل والبناء، حتى ولو كان في صورة ما يحبه الله تعالى من بيوته، فهم جديرون ببعض الله إياهم.^(١)

الخامس: جاءت الآية باسم التفضيل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، فهل هناك مفاضلة بين التقوى وما أسس عليها وبين ما لم يؤسس على التقوى؟ هل يوجد وجه مقارنة حتى يقال: هذا أحق فقط من هذا؟ كلا، إن اسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، فكان معنى أحق أى كونه في نفسه حقيقاً بأن يقام فيه، إذ لا استحقاق للقيام في المسجد الضرار رأساً.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٣/١٠)، والفخر الرازي «التفسير

الكبير»، (٨/١٧٧-١٧٨).

التقوى في القرآن الكريم

ولعل النكتة في الإتيان باسم التفضيل هو التهكم بالمنافقين^(١) بأن مسجدهم - مجارة لهم - وإن كان حقيقاً بالصلاة فيه فإن المسجد الذي أسس على التقوى أحق، أى إن مسجدهم لم يؤسس على التقوى، فليس جديراً إلا بأن يكون مكاناً تلقى فيه الجيف والقمامة، وأن يهوى بأصحابه في النار.

السادس: استنبط العلماء من الآية أن ما كان من المساجد لم يؤسس على التقوى ولم يبن على رضا الله تعالى فلا يقوم فيه المؤمن، إذ هو لاحق بمسجد الضرار، وقد طبق العلماء ذلك. يقول الإمام القرطبي^(٢): «وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلى في مسجد بنى عامر، فوجد الصلاة قد فاتته، ف قيل له: إن مسجد بنى فلان لم يصل فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلى فيه، لأنه بنى على ضرار. قال علماؤنا: وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فهو في حكم مسجد الضرار، لا تجوز الصلاة فيه».

فهذه آثار التقوى، يتحرى أصحابها مواقع القبول وأماكن الرضا عند الله تعالى.

ونستكمل الموضوع التالى للتقوى في سياق مسجد الضرار وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٩]:

فبعد أن أقسم الله - سبحانه وتعالى - بأن المسجد الذي أسس على التقوى

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣١ / ١٠).

(٢) القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٨ / ٢٥٤). وكذلك الكشاف أشار إلى ذلك، ونقل القصة. يقول الزمخشري، (٢ / ١٧٢): «وقيل: كل مسجد بنى مباهاةً ورياءً وسمعةً أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بهال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار».

من أول يوم هو الحقيق بالصلاة والدعاء دون غيره، بل إن غيره مصيره إلى الهدم والفناء ولا يجوز أن يقوم فيه المسلم، جاءت الآية التي معنى لتأكيد ذلك وبث السكينة في قلوب المؤمنين لمثل هذا الحكم الحاسم، ولمحو أى تردد في تلك المواقف والمبادئ الفاصلة، فضربت الآية هذا المثل شاهداً على ثبات وقوة ما بنى على التقوى، وهشاشة وخسة وسوء ما بنى على غيرها وسرعة انهياره، مما يدل على عاقبة ذلك وحسن ثوابه وسوء منقلب الآخر وأليم عقابه.

وبالنظر في الآية: نجد التفریع في قوله: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ... ﴾ على قوله: ﴿ لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ... ﴾ لزيادة بيان أحقية المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه، وبيان أن تفضيل المسجد تفضيل مسلوب المشاركة بعد ورود النهي عن الصلاة فيه.

والاستفهام للتقرير^(١)، وأخرت الفاء عن همزة الاستفهام لأن الاستفهام حقه الصدارة.

ونلاحظ في الآية: أنه في الجزء الأول جاء الخبر بقوله (خير)، أى: أفمن أسس بنيانه على تقوى الله تعالى ورضوانه خير، وفي الجزء الثاني حذف الخبر وهو قوله (خير) وكأنه لدلالة الأول عليه، ولكنه في الثاني ومع حذف الخبر عقب بقوله: ﴿ فَأَتَهَارَ بِهِءٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾، وهو تركيب موح كأن الثاني لا

(١) هذا ما عليه جمهور المفسرون، وذهب صديق خان في «فتح البيان»، إلى أنه استفهام إنكارى، وكذا الألوسى في «روح المعاني»، (٧/٣٢). والفاء عاطفة على مقدر أى بعد ما علم حالهم، فمن أسس. والتأسيس: بناء الأساس، وهو قاعدة الجدار المبنى من حجر وطين أو خص. والبنيان في الأصل: مصدر بوزن الغفران والكفران، ويطلق البنيان على المبنى من الحجر والطين خاصة، وهو هنا مطلق على المفعول أى المبنى. والشفا (بفتح الشين والقصر): حرف البئر وحرف الحفرة. والجرف (بضمين): جانب الوادى وجانب الهوة. وهار: اسم مشتق من هار، البناء إذا تصدع.

يستحق أبداً ذكر الخير معه، لأنه لا خير فيه البتة، كأنه - وهو الحق - شرُّ كله قصداً ونية وعملاً ونتيجة، ويذكر بقابل ذلك بأن الأول خير كله قصداً ونية وعملاً وعاقبة، حيث يقال في جواب الاستفهام: بل المؤسس على التقوى هو الخير، فالتمسك بذلك هو الخير، وقد يوحى تنكير الخير بشيء مما ذكر.

ونلاحظ في الجملة الثانية كذلك التعبير بكلمة (هار) أى: منهار، وفيه إشارة إلى أن من أسس بنيان دينه على غير التقوى، ورفع بنائه أياً كان على غير رضا الله تعالى، فقد أسس بنيانه على حرف منهار، ليس على حرف يوشك أى يسقط ويتداعى، بل هو منهار بالفعل، كما يؤكد اسم الفاعل البانى على شيء منهار متداعٍ ساقط، يبنى وهو ينهار، فهل يتم له البنيان؟ وهل يستطيع هو نفسه أن يبنى والبنيان ينهار ويتساقط عليه منزلق فوق رأسه، يكاد أن يرحم به وأن يدفن تحته حياً. وهى توحى أشد الإيحاء بما عليه بناء التقوى والمتقون من ثبات البنيان وارتفاعه، وتحقيق النتيجة للبنايين المتقين، وحفظ الله لهم.

وتبين الآية نتيجة البناء على غير تقوى، على الباطل والنفاق والرياء والسمعة، على غير ما يرضى الله، تبينها على أسوأ حال وهو الانهيار به^(١) في نار جهنم، وهو العاقبة الوخيمة التي وضحت وجلت ما هو مقابلها وهو الجنة، تلك عاقبة الذين اتقوا وإن لم تذكر في الآية.^(٢)

(1) سواء عاد الضمير على البانى أو على البنيان وكانت الباء للتعدية أو للمصاحبة، أى: انهار به حال كونه مصاحباً له إلى النار.

(2) جاءت بعض الأخبار لتؤكد بظاها أن هذا المسجد وقع بعينه في نار جهنم، وليس هناك شيء خارج قدرة الله تعالى. يقول العلامة الألوسى، (٣٣/٧)، ما حاصله: «وظاهر الإخبار أن ذلك المسجد إذا وقع وقع في النار، فقد أخبر ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة أنه قال في الآية: والله ما تنهى ان وقع في النار. وذكر لنا أنه حفرت فيه بقعة فرأى منه الدخان...»، إلى أن يقول: «وأنت تعلم أنى والحمد لله مؤمن

وقد لخص صديق خان^(١) البلاغة في الآية بقوله: «والمعنى أن من أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي تقوى الله ورضوانه، خير أمن أسس دينه على ضد ذلك، وهو الباطل والنفاق. قيل: إنه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي، أو مجازاً فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة بحال من بنى شيئاً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن فيه، أو البنيان استعارة أصلية والتأسيس ترشيح...»، إلى أن يقول: «وسبحان الله، ما أبلغ هذا الكلام وأقوى تراكيبه وأوقع معناه وأفصح مبناه».^(٢)

وهكذا أوضح هذا البيان المعجز بأوضح الأساليب أنه لا يستوى أبداً ما أسس لله مع ما أسس لغيره، وأن التقوى هي الفيصل في التفرقة في كل مراحل العمل نيةً وسلوكاً وواقعاً. وكذا لا يستويان عاقبة ونتيجة تنظرك. فهي دعوة

بقدرته سبحانه على أتم وجه وأنه ﷺ فعال لما يريد، لكنى لا أؤمن بمثل هذه الظواهر ما لم يرد فيها خير صحيح عن رسول الله ﷺ. وقد سبق ابن عطية إلى القول بمثل ذلك، ولكنه رجح كونه مثلاً، يقول: ﴿فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الظاهر منه وما صح من خبرهم وهدم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارج مخرج المثل. وقيل: بل ذلك حقيقة وأن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم. قاله قتادة وابن جريح، وهذا كله بإسنادين، وما قدمناه أصوب وأصح. «أ.هـ.

(١) صديق خان «فتح البيان»، (٤/٢٠٠-٢٠١).

وهو محمد صديق خان بن حسن بن علي، عالم، أمير مشارك في أنواع من العلوم ولد في قنوج بالهند في جمادى الأولى ١٢٤٨هـ، ١٨٣٢م، وله من تصانيفه الكثيرة أبجد العلوم، وتوفي عام ١٣٠٧هـ، ١٨٨٩م. انظر فهرس الفهارس للكتاني (١/٢٦٩).

(٢) صديق خان «فتح البيان»، (٤/٢٠٠-٢٠١).

لبناء النفس والمجتمع على ذلك ليتقدم ويتطور.

والموضع التالي من مواضع التقوى هو قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١):

ويطلق البر في كلام الشرع على معنيين: أحدهما: على معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خص بالإحسان إلى الوالدين فقيل: بر الوالدين، ومن هذا المعنى قوله النبي ﷺ لما سُئِلَ عن بر الحج، قال: «إطعام الطعام وإفشاء السلام»، وفي رواية: «وطيب الكلام»^(٢). والثاني: أى من معانى البر أن يراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالبر بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار، كالمرض والفقر، وعلى

(١) البر في اللغة: التوسع في فعل الخير، وينسب إلى الله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، وإلى العبد فيقال: بر العبد ربه. انظر الراغب الصبھاني «المفردات في غريب القرائن»، مادة بر. والإثم في اللغة: الذنب، وقد أثم إنثماً ومأثماً إذا وقع في الإثم فهو آثم. انظر أبو بكر الرازي «مختار الصحاح»، ترتيب محمود خاطر، مادة: أثم.

(٢) رواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرک على الصحيحين (٤٨٣/١) من رواية جابر، وصححه، ووافقه الذهبي. وهو في «مجمع الزوائد» لنور الدين الهيثمى (٢٠٧/٣)، وقال: رواه الطبرانی في الأوسط واسناده حسن.

الطاعات كالصبر عند لقاء العدو.

وقد فسر النبي ﷺ البر بقوله: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».^(١)

فما علاقة ذلك كله بجواب النبي ﷺ: «البر حسن الخلق»؟ حسن الخلق يشمل هذه الخصال كلها لأنه يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]، لذلك قالت السيدة عائشة: كان خلقه ﷺ القرآن، يعنى يتأدب بآدابه، فيفعل أوامره ويجتنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلق الجبل لا تفارقه، وهذا أحسن الأخلاق وأشرفها.^(٢)

ولكن هل عطف التقوى على البر يقتضى المغايرة؟ فما معنى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾؟ ذكرنا فيما سبق توضيح معنى البر، وكان مهماً لمعرفة العلاقة بين البر والتقوى، لأن البر في المعانى السابقة هو تقوى الله تعالى، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ إلى قوله: ﴿... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وجاء قوله تعالى ليؤكد هذا المعنى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾، وإذاً فما معنى قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾؟ خاصة وأن الأصل في العطف أنه يقتضى المغايرة، وإلا كان المعنى: وتعاونوا على البر والبر، أو التقوى والتقوى. والتوفيق أن هذه الألفاظ إذا اجتمعت افرقت في المعنى، كلفظ الإسلام والإيمان والدين، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تعنى أن الإسلام مقصود به معنى، وهو الأفعال الظاهرة في حديث جبريل، وهى الشهاداتتان والصلاة والصيام والزكاة والحج، والإيمان

(1) رواه مسلم (٢٥٥٣)، انظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١/٣٥٢).

(2) انظر ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (٢/٩٣).

التقوى في القرآن الكريم

مقصود به الاعتقادات الباطنة، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأمّا عند الإطلاق فيشمل كل منهما الآخر، أي إذا افترقا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، فلا شك أن الإسلام يشمل الإيمان والإحسان، وصار الدين كذلك يشمل الإسلام والإيمان والإحسان.

وكذا لفظ البر والتقوى عند اجتماعهما، كقوله تعالى السابق: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، فإن البر له معنى، والتقوى لها معنى على ما فصلنا في معانى البر، ومعانى التقوى. يقول الإمام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: «وقد قال في آية البر: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. وقد أشار ابن القيم إلى مثل ذلك في تفسير الآية.^(١)

ثم ندرس الآن ما لم نتعرض له في دراسة نصوص البر والتقوى التي أشرنا إليها قبل، لأننا ذكرناها في مواضعها من البحث. أول ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وعلى ما وضحنا من علاقة البر والتقوى يكون معنى الآية: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، أي على معاملة الخلق بالإحسان وبالتقوى معاملة الحق سبحانه بفعل طاعته، واجتناب محرماته، ويكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أن يراد بالإثم: المعاصي، وبالعدوان: ظلم الخلق، وذلك أنسب للسياق، لأنه في تأديب الله تعالى للمؤمنين في معاملتهم للكفرة، حيث أرشدهم إلى أن شنأهم للكفرة لا يمنعهم من الإحسان إليهم ليجبوا دين الله، ولا يدفعهم لظلمهم

(١) شيخ الإسلام أحمد عبد الحلیم ابن تيمية «مجموع فتاوى شيخ الإسلام»، (٧/١٨٣)، وانظر ابن القيم محمد بن أبى بكر «التفسير القيم»، جمع محمد أويس النوى، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ص ٢٢٨).

لكونهم كفرة قد أذوا المسلمين وصدوهم عن المسجد الحرام، كل ذلك لا يحملهم على العدوان، بل يلزمهم الإقساط إليهم وعدم التعدي عليهم. أما التعاون على البر والتقوى فجميل أثره، وحسن عاقبته، فقد سمعنا عنها وعشناها ذكريات.

لم تسعفني المصادر والمراجع التي تحت يدي بتفسير موسع للآية، وكأنها واضحة بما لا مزيد عليه لتفسير أو شرح، فلم تزد على تفسير معنى الإثم والعدوان والبر والتقوى، مع إشارة للتفسير المناسب للسياق أو العموم في الآية.

يقول الإمام ابن جرير شارحاً لألفاظ الآية مجملًا لتفسيرها:

«وليعن بعضكم أيها المؤمنون بعضاً على البر، وهو العمل بما أمر الله بالعمل به، والتقوى، وهو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه. وقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يعني: ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم، يعني على ترك ما أمركم الله بفعله، والعدوان». يقول: «ولا على أن تتجاوزوا ما حد الله لكم في دينكم وفرض لكم في أنفسكم وفي غيركم».

وأما مناسبة ذلك - وهو قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا...﴾ - للسياق، فهو على قول من قال: إن قوله ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَا تَجْرِمَنَّكُمْ﴾، فيكون المعنى كما يقول العلامة أبو السعود^(١): «أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصددهم إياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم، وانتقامكم منهم للتشفى، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، لما كان الاعتداء غالباً بطريق التظاهر والتعاون، أمروا أثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٦/٢). وبمثله قال الألوسي «روح

المعاني»، (٤/٨٥).

والتقوى، ومتابعة الأمر، ومجانبة الهوى، فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون على العفو، والإغضاء عما وقع منهم دخولاً أولياً^(١)، ثم نهوا عن التعاون في كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، بقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام.

وبتكملة النظر في الآية وجدنا النهي متأخراً عن الأمر، مع أن دفع المفسد مقدم على جلب المصالح، أو كما يقول العلامة أبو السعود: «مع تقدم التخلية على التحلية، مسارعةً إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات، فإن المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان، إنما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى»^(٢). ونلاحظ أن التعاون على البر والتقوى متضمن للنهي عن الإثم والعدوان، لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده، فالنهي تأكيد لمضمون الجملة قبله، ومع ذلك فالاهتمام بحكم الضد يقتضى النهي عنه بخصوصه، والمقصود أنه يجب أن يصد بعضكم بعضاً عن ظلم قوم لكم نحوهم شأن، وهو أن البغض لا يقتضى ولا يكون سبباً لظلم المبعوض والاعتداء عليه، وأن تجتمع القبيلة مع بعضها في

(١) يوضح الألوسي هذا القول بأنه على قول من قال: إن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا...﴾ استئناف، والوقف لازم على قوله: ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾، لتصير الآية من جوامع الكلم، وتكون تذييلاً للكلام، ويكون هو المعنى العام في الآية، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، ويدخل العفو والإغضاء دخولاً أولياً. وإلى مثله أشار القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» فيما نقله عن الأخفش، قال: هو مقطوع من أول الكلام، وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر، أو ليعن بعضكم بعضاً، وتباحثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا عنه، فقوله موافق لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله» ١.هـ، (٤٦/٣). وقد نقله د. أديب الصالح «التقوى»، (٤٦/١).

(٢) أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٦/٢).

مواجهة الآخرين حميةً وعصبيةً مهما كان الآخرين مظلومين ومعتدى عليهم، ومهما كان أفراد القبيلة ظالمين آثمين معتدين.

ولم يفرق الإسلام كذلك في هذا المبدأ حتى مع اختلاف العقيدة والدين، بله العرق واللون والمكان، فالآية نزلت في المشركين الصادين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، المقاتلين للإسلام وأهله، والذين فعلوا في المسلمين ما يندى له جبين البشرية خزيًا وأسفًا، ومع ذلك جاء الإسلام بالعدل والقسط في معاملتهم، حتى حال القدرة عليهم، ولم يرض لهم الظلم، مع أنهم البادئون به الساعون إليه.

ويجدر بنا أن ننقل كلمات الأستاذ/ سيد قطب في تفسير الآية، إذ أصاب في عمومه وجانبه الصواب في بعضه فننقل هنا ما حالفه فيه التوفيق، ونترك الآخر لتعليق الهامش. يقول - رحمه الله ^(١): «إنها قمة في ضبط النفس، وفي سباحة القلب..، ولكنها هي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربه أن تقوم على البشرية لتهدئها، وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء». ثم يمضى - رحمه الله - ليصف الجاهلية، وما جاء به الإسلام من منهج رباني، وتربية استطاعت أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر، فيقول: «كانت حمية الجاهلية ونعرة العصبية.. كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى، وذلك طبعاً في بيئة لا ترتبط بالله، ولا تستمد تقاليداً

ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله، يمثل ذلك كله المبدأ الجاهلي المشهور: «انصر أخاك ظالماً أم مظلوماً» ^(٢)، وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي وهو

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٢/ ٨٩٣).

(٢) هذا ما أشرنا إليه في بداية الكلام مما جانبه فيه التوفيق - رحمه الله تعالى، وليت مثل هذا

يقول:

وهل أنا إلا من غزية، إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

ثم جاء الإسلام، جاء المنهج الرباني للتربية، جاء ليقول للذين آمنوا: ﴿وَلَا تَجْرِمَنكُمْ شَتَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢١٧﴾، جاء ليربط القلوب بالله، وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله، جاء ليخرج العرب ويخرج البشرية كلها من حمية الجاهلية ونعرة العصبية وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في

=

الكلام الجميل لم يعكر صفوه مثل ذلك، وقد ذكره من قبل ثم أعاد الكلام عليه مرة أخرى من بعد، وكأنه - رحمه الله - فاته - والغفلة والسهو من صفات البشرية - أن هذا حديث صحيح رواه البخاري، وانظر فتح الباري، (٥/ ٩٨)، باب «أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً»، المطبعة السلفية، من كلام الرسول المعصوم ﷺ حيث قالوا: يا رسول الله، هذا نصره مظلوماً، فكيف نصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه، وفي رواية: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره. نعم ذكر ذلك القول في الجاهلية، يقول الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»، الموضوع السابق: «لطيفة: ذكر المفضل الضبي في كتابه الفاخر أن أول من قال «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره، وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية، لا على ما فسره النبي ﷺ وفي ذلك يقول شاعرهم:

إذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم على القوم لم أنصر أخى حين يظلم» ١.هـ.

ومقصودنا، حتى وإن قيل ذلك وصار مبدأ في الجاهلية، فكم من أمور الجاهلية صححها النبي ﷺ فأخذنا الصحيح هذا الذي أقره الشرع، ونبذنا ما لم يقره، فصار هذا القول من قول الرسول ﷺ بهذا التفسير الرائع، بل ويصح أن يكون تفسيراً جميلاً للآية، لا كما أبقاه الأستاذ على معنى الجاهلية، فيتعاون الناس على نصر المظلوم، وكف الظالم، ولو كان أحاهم، ففي ذلك نصره، وهو من التعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان.

مجال التعامل مع الأعداء والأصدقاء».

ونعود لاستكمال النظر في الآية، حيث فصل بعض أهل العلم شيئاً من التعاون الذي يجب بين الناس، فنقل القرطبي عن ابن خويز منداد قوله: «والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه: فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغنى بهاله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة: «المؤمنون تتكافؤ دماءهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(١)، ويجب الإعراض عن المعتدى، وترك النصرة له، وردة عما هو عليه».

وهذا كالمقدمة لما ذكره علماء الحديث في باب التعاون على البر والتقوى، ومنهم الإمام النووي^(٢)، حيث ذكروا من أحاديث النبي ﷺ ما يوضح شيئاً من هذا التعاون يكون نبراساً لبقية أنواع التعاون، وفي نفس الوقت تبين جزاء هذا التعاون وعظيم ثوابه عن الله - جل وعلا. فالحديث الأول عن الجهاد يبين أن المعين للمجاهد الغازي على الجهاد أن له أجر الغزو، مع أنه لم يغز، يقول رسول الله ﷺ: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»^(٣)، وفي رواية لابن حبان: «كتب له مثل أجره لا ينقص من أجره شيء».

(١) رواه أبو داود سليمان بن الأشعث، تعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، (٢٧٥١). وابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، (٢٦٨٣).

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، ت ٦٧٦هـ، في كتابه «رياض الصالحين» مع شرحه دليل الفالحين، للإمام محمد بن علان الصديقي، ت ١٠٥٧هـ، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (١/٤٥٥) وما بعدها.

(٣) متفق عليه، من رواية زيد بن خالد الجهني. رواه البخاري (٢٨٤٣)، وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (٦/٤٩). ورواه مسلم (١٨٩٥)، وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٧/٤٦).

بل إن من خلف غازياً في أهله بخير، من قضاء حاجة لهم أو إنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم في أمرهم، كان غازياً هو الآخر، له أجرهن لا ينقص من أجره شيء، وإن كان عظم الثواب يختلف باختلاف الجهاز والنفقة والقيام على مصلحة أهل الغازى قلةً وكثرةً.

إن التعاون على البر والتقوى وجزيل الثواب عليه جعل ثواب المجهز والمتخلف في أهل الغازى بخير ثواب، من عرض نفسه للموت، وتحمل مشقة السير، وكابد متاعب القتال والمواجهة.

والحديث الثانى فى الحج، عن ابن عباس - رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لقي ركباً بالروحاء، فقال: من القوم؟ قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال رسول الله ﷺ: فرفعت إليه امرأة صبياً، فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر. (١).

فإذا كان الحديث الأول فى الجهاد يبين التعاون على البر والتقوى، فهذا فى الحج يبين كذلك قيمة التعاون على طاعة الله تعالى، حتى ولو كان المتعاون معه المحمول على ذلك صبياً صغيراً غير مكلف، فما بالك لو كان مكلفاً، وكذلك لو التعاون فيما هو أخص من هذا الأمر، مما يلزمه ويخصه مباشرة. وهذا يوضح ثواب التعاون على الطاعة، وأهمية أن يقوم الناس بإعانة بعضهم بعضاً على القيام بمثل هذه القربات والتقرب إلى الله تعالى بالإعانة على جميع الطاعات، وأن فى كل أجر لا ينقص به أجر الآخر.

والثالث عن أبى موسى الأشعري ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «الخازن المسلم الأمين، الذى ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبةً به نفسه، فيدفعه إلى الذى

(١) رواه مسلم فى الحج (١٣٣٦)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١٠٩/٥).

الروحاء: محل بقرب المدينة، انظر الصديقى الشافعى «دليل الفالحين»، (٤٥٦/١).

أمر له به، أحد المتصدقين»^(١).

فإذا كان الحديث الأول فيمن يعين على الجهاد، والثاني على الحج، فهذا في الخازن الأمين كيف جعله رسول الله ﷺ بتعاونه أحد المتصدقين، فإذا ما أخرج ما أمر بإعطائه من المال على النحو الذي ذكره النبي ﷺ كان متصدقا مع أنه ليس بهاله، ونلاحظ قول الرسول ﷺ: «يعطيه كاملاً موفراً» تأكيد بعد تأكيد لما غلب على الخزان من بخلهم بهال غيرهم، أما قوله «طيبة بها نفسه» أي بغير حسد للآخذ على ما أخذ، وهو ليس ماله حتى تطيب أو لا تطيب بها نفسه، ومع ذلك أشار إليه لغلبة الحسد على إعطائهم المال لغيرهم، أو لعبوسهم وتقطيب وجوههم بما يكدر خاطر المعطي، فانظر كيف عظم أجرهم. وفي هذا توصية من النبي ﷺ لأمثال هؤلاء في كل زمان ومكان، لإحسان معاملتهم ظاهراً وباطناً لكل مسلم له تحت أيديهم مصلحة يثابون على قضائها هذا الثواب العظيم.

ونختم بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾، وسياق هذه الآية الكريمة هو: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾، فكما ذكر سبحانه وتعالى في آية البر: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾، فهكذا هنا ليس البر بأن يأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر في تقوى الله تعالى. وقد ذكر أن الأنصار في الجاهلية كانوا إذا رجعوا من الحج دخلوا بيوتهم من ظهورها، فرجع أحدهم فدخل من بابه، فكأنه غير بذلك، فنزلت الآية الكريمة لترشدهم أن البر ليس في اتیان البيوت من ظهورها، ليس في ذلك بر، كما أنه التوجه في ذاته إلى المشرق والمغرب ليس فيه

(١) متفق عليه. رواه البخارى (١٤٣٨)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»،

(٣/٣٠٢). ورواه مسلم (١٠٢٣)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»،

(٤/١٢٠).

بر، وأخبرهم أن البر في تقوى الله تعالى، ونهاهم ثم عن تلك العادة من عادات الجاهلية، وهي اتيان البيوت من ظهورها، وأنها ليست من علامات الفلاح، ولا العمل الصالح، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وقد ذكر الزمخشري في «الكشاف» أن هذه الآية تحتمل أن تكون تمثيلاً لتعكيسهم في السؤال وهو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والبر من اتقى ذلك، ومباشرة الأمور من وجوهها، والمراد توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعاله حكمه وصواب من غير اختلاج تردد أو شك.^(٢)

وإذا قلنا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا مانع أن يزداد هذا المعنى على التفسير السابق للآية، فتشمل الآية الكريمة هذا وذاك، خاصة وقد صار هذا التذليل مثلاً، وهو قوله: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

والموضع التالي هو قوله تعالى: ﴿يَنَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]:

فإذا كان الله تعالى أهل التقوى، والداعى إليها رسول الله ﷺ وأتباعه بإحسان، ولها كلمتها وهدايا، فإن هذه الآية الكريمة تبين لنا طريقاً هو أقرب للتقوى، ومكاناً ينزل فيه المرء بجوارها أو يحل عندها، ألا وهو العدل مع القريب والبعيد والعدو والصديق، مع المسلم والكافر، ترفعاً عن نزعات الميل والهوى لجنس أو عرق أو دين، وتخلصاً كذلك من رغبات النفس ضد

(١) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٢/١٠٨). وانظر ابن كثير «تفسير القرآن

العظيم»، (١/٢٢٥). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/١٨٩).

(٢) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/١١٧-١١٨).

المكروهين والمبغوضين إلى أفق العدل والحق والقسط. إنه منهج الله - سبحانه وتعالى - الحامل للنفس البشرية على الضبط وفق معايير الحق والخير الخاضع لسلطان الله تعالى وحده، الذي يجعل تلك القلوب حية تستشعر خوف الله ومراقبته والخشية له الباعثة على السلوك السوى والخلق الرشيد والعمل الصالح، مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة قد نهى الله تعالى فيها المؤمنين أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء، وكانت الغاية في ضبط النفس والساحة، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي القويم، فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل، يقول الأستاذ/ سيد قطب^(١): «وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء، والوقوف عنده تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض. إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء. فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنئين».

كل ذلك يحدث وينبغي أن يحدث لعة واحدة، هي أن ذلك أقرب للتقوى، أقرب لما يحب الله - جل وعلا، يقول الإمام الفخر الرازي، في قوله: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: «فهاهم أولاً عن أن يحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم ذكر لهم علة الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾»^(٢).

(١) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٢/ ٨٥٣).

(٢) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٢٠). وهو قول معظم المفسرين من قبل، انظر الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٣٢٦-٣٢٧)، والبيضاوي، (٢/ ٣٠١)، والنسفي،

ويكمل الإمام فيقول:

«وفيه وجهان - أى معنى التقوى هنا: الأول: هو أقرب إلى الاتقاء من

معاصى الله تعالى. والثانى: هو أقرب إلى الاتقاء من عذاب الله.»^(١)

(١/٢١٣)، وأبا حيان «البحر المحيط»، (٤/١٩٦). والألوسى «روح المعانى»،
مجلد ٤، (٥/١٢٣).

يقول العلامة الألوسى في تفسير الآية: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ﴾ أى كثيرى القيام له بحقوقه
اللازمة، وقيل: أى ليكن من عادتكم القيام بالحق في أنفسكم بالعمل الصالح، وفي
غيركم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ابتغاء مرضاة الله تعالى، ﴿شُهِدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾
أى بالعدل، ﴿وَلَا يَجْرَمَنَّكُمْ﴾ أى لا يحملنكم، ﴿سَنَاءُ قَوْمٍ﴾ أى شدة بغضكم
لهم، ﴿عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا﴾: فلا تشهدوا في حقوقهم بالعدل، أو فتعدوا عليهم بارتكاب
ما لا يحل، ﴿أَعْدِلُوا﴾ أيها المؤمنون في أولياتكم وأعدائكم. ﴿هُوَ﴾ راجع إلى العدل،
﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى أدخل في مناسبتها... إلخ.

(١) الرازى «التفسير الكبير»، (٥/٦٢١).

وأفعل التفضيل هنا على غير بابه، إذ لا يشترك العدل مع الجور في قربهما من التقوى، ولكن
العدل أقرب، بل ذلك كقوله: ﴿ءَآلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، إذ ليس فيما يشركون خير
حتى تعقد المقارنة، يقول الإمام ابن كثير: «وقوله ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من باب استعمال
أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شىء، كما في قوله تعالى: ﴿
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، الإمام ابن كثير «تفسير القرآن
العظيم»، (٢/٣٠-٣١). وتكلف الراغب الأصفهاني - على حد تعبير العلامة
الألوسى - في توجيه الآية فقال: فإن قيل: ذكر - سبحانه - ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأفعل
إنما يقال لشيئين اشتركا... إلخ؟ قيل: إن أفعل وإن كان كما ذكرت، فقد يستعمل على
تقدير بناء الكلام على اعتقاد المخاطب في الشىء في نفسه، قطعاً لكلامه وإظهار لتبكيته،
فيقال لمن اعتقد مثلاً في زيد فضلاً وإن لم يكن فيه فضل ولكن لا يمكنه أن ينكر أن عمراً
أفضل منه: اخدم عمراً فإنه أفضل من زيد، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ءَآلَهُ خَيْرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾. «روح المعانى»، (٥/١٢٢-١٢٣).

والحق أن حذف معمول التقوى هنا يجعلها تشمل كل معاني التقوى، أي التقوى الشاملة، التي لا يشذ معها شيء من الخير، وذلك أن العدل هو ملاك كبح النفس عن الشهوة، وذلك ملاك التقوى.^(١)

وهذا يبين لنا أهمية التقوى وقيمتها ودرجتها عند الله، ومدى محبة الله تعالى للمتقين، حيث فرض على النفس هذا التكليف الشاق، وهذا المبدأ الصعب، ولكن يهون على النفس وتتقبله راضية إذا كان في ذلك ما يجب الله من تقوى ويرضى، وما تستقيم به أمور الدنيا.

ولما كان الأمر بالعدل يمكن أن تتململ منه النفس، وتتردد في القيام به، جاءت بداية الآية بهذا النداء المحب للنفس المثير فيها لكوامن الطاعة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ليحملهم على المسارعة لما يتلوه من الأوامر والنواهي، إذ من دواعي الإيمان وأهم سماته وعلاماته المبادرة لامتنال تعاليم الشرع وتوجيهاته، والانصياع التام لأحكامه وتشريعاته.

ثم جاء الأمر بالقيام لله تعالى، وهو كذلك حث على الانقياد لتكاليف الله تعالى، متصل بما قبله من الحث في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.^(٢)

وقد رأينا كيف جاء الأمر بالقيام بصيغة المبالغة، لأن من قام مرة أو مرتين لا يعد قواماً لله تعالى، وكذلك لأن كثرة القيام لله تعالى لا تترك مجالاً للقيام غيره بوجه ما للجور أو للظلم، أو لأية مخالفة للأمر، حتى يكون المرء في قيامه مثلاً

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/١٣٦).

(٢) ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية.

للتقوى الكاملة لله - جل وعلا - التي يجاهد المرء أن يصل إليها من كل جهة لرضا الله - سبحانه.

وفي الآية تنبيه على أنه - سبحانه - إذا أمر المؤمنين بأن لا يحملهم بغضهم وعداوتهم لأعدائهم وأعدائه على ترك العدل معهم، وأن ذلك أقرب للتقوى، فمن باب الأولى العدل مع المؤمنين وهم أولياؤه وأحباؤه. ترى العدل معهم يصل بالمرء إلى أية درجات التقوى؟^(١)

ثم ختم القرآن الكريم الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فإذا كان العدل أقرب للتقوى، فإن التقوى هي المطلوب الأصلي والهدف المنشود، ومن ثم أمر بها مرة أخرى، اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله.^(٢)

ويحتمل الأمر بالتقوى هنا كذلك ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبري، من كونها أمراً بالخوف من الله في عدم تطبيق ما سبق من أوامر، مع التنبيه على أن الله خبير بذلك، وأنه لا يخرج عن علمه ما يصنعون فيجزئهم به، يقول - رحمه الله: «واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عباده، فتجاوزوا فيهم حكمه وقضائه الذي بين لكم، فيحل لكم عقوبته وتستوجبوا أليم نكاله، إن الله خبير بما تعملون، أي ذو خبرة وعلم بما تعلمون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، محض ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم به

(١) راجع الزمخشري «الكشاف»، (١/٣٢٦-٣٢٧). والبيضاوي، (٢/٣٠٣). والرازي «التفسير الكبير»، (٥/٦١٩). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٤/١٩٦). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/١٣).

(٢) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/١٤). والألوسي «روح المعاني»، (٥/١٢٣).

جزاءكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا». وأبو حيان الأندلسي له نظرة أخرى فاحصة ولطيفة في الخاتمة الكريمة للآية، فيقول - رحمه الله^(١): «لما كان الشنان محله القلب، وهو الحامل على ترك العدل، أمر بالتقوى، وأتى بصفة ﴿حَبِيرٌ﴾ ومعناها: عليم، ولكنها تختص بها لطف إداركه، فناسب هذه الصفة أن ينبه بها على الصفة القلبية»^(٢).

أى من كون اطلاع الحق على خفايا الصدور، فتجعل المرء مراقباً لربه، يصدر فعله عن هذه المراقبة، مقروناً بالتقوى الباعث على مراعاة الأمر. ونختم بأن الحق - سبحانه - أظهر الاسم المعظم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لما مر، إدخالاً للروعة في النفس، وإثارة للمهابة، وتأكيداً على استقلال الجملة.

وأما الموضع التالى فهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]:

وإذا كانت آية العدل تبين لنا منزلاً ينزله المرء فيكون قريباً من التقوى التي يحب الله ورسوله ﷺ، فهذه الآية الكريمة تبين لنا المنزل الثانى الذي ينزله المرء فيكون كذلك أقرب للتقوى، وهو العفو. وهو من المفارقات العجيبة في أسلوب القرآن الكريم المعجز، أن يكون العدل والعفو أقرب للتقوى، وهما ليسا في كفة واحدة من أوامر الشرع، إذ العدل واجب والعفو مستحب وفضل، ولكن إذا علمنا مقابل العفو، وهو الذي يشاركه في التقوى، ولكن العفو أقرب منه لها،

(١) انظر ابن جرير «جامع البيان»، مجلد ٤، (٦ / ٩١).

(٢) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٤ / ١٩٦).

تبيت لنا هذه المفارقة، فمقابل العفو التمسك بالحق، وهو لا ينافي التقوى، ومن ثم كان العفو أقرب منه لها.

أما العدل فلا يدخل معه في التفصيل شيء، إذ ليس هناك إلا الجور والظلم، فصار أفعال التفضيل هنا على غير بابها كما بينا، من ثم كان العدل قائماً برأسه في كونه هو الأقرب من التقوى.

ولتوضيح ذلك نعود إلى تفسير الآية الكريمة^(١)، والذي ملخصه أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها، وقد فرض لها صداق، فلها نصف هذا الصداق، جبراً لكسرهما. واستثنى ما هو أقرب للتقوى - وهو على الأصح من أقوال أهل العلم^(٢) - أن تعفو المرأة عن نصفها المقدر لها من الصداق، أو يعفو الزوج عن نصف المهر الآخر، حيث في الغالب ما يسلم الزوج المهر كاملاً. ثم ندهم إلى عدم نسيان هذا التفضل من كل منهما على الآخر، وترك التقصي، والمساحة، لما كان بينهما من الوصلة التي لا تشبهها وصلة، والتي تدعو رعايتها إلى التسامح. ثم ختم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كأنه ترغيب للمحسن، وترهيب

(١) وانظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ٢، (٢/٣٤٠)، وعلى هامشه تفسير النيسابوري، (ص ٣٨٢). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٢/٥٣٩). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/٣٢٠) وما بعدها. والنسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (١/٩٥). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٢٧٤). والبيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (١/٥٣٥). والرازي «التفسير الكبير»، (٣/٤٥٠). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٢، (٣/٢٠٨). والزنجشري «الكشاف»، (١/١٤٦). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٢٨٩). والألوسي «روح البيان»، (٢/٢٣٣-٢٣٤). وابن الجوزي «زاد المسير»، (١/٢٨١).

(٢) وقد أشار صديق خان إلى هذا الأصح في «فتح البيان»، (١/٢٩٣) وما بعدها، بعد ذكر الأقوال وأصحابها.

غيره، فهو بصير بما عمل كل منكم فيجازيه به.

ونلاحظ أن القرآن الكريم يلاحق هذه القلوب كي تصفو وترف وتخلو من كل شائبة باستجاشة شعور التقوى، ويلاحقها باستجاشة شعور السباحة والتفضل، ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله، ليسود التجمل والتفضل هذه العلاقة ناجحة كانت أم خائبة، ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية، موصولة بالله في كل حال.^(١)

وليس ثم خلق حميد وسلوك رشيد يحمل المرء على هذه التصرفات الحسنة، إلا تقوى الله - جل وعلا، فالمتقون أهل لأن يبادروا إلى امثال ذلك، لتسود هذه المعاني النبيلة في مجتمع أهل الإيثار، فلا ترى مكاناً حينئذٍ لحقد وانتقام، مما نسمع عنه ونقرأ هذه الأيام بين الأزواج وزوجاتهم، ابتداءً بالمحاكم، وانتهاءً بالتقطيع إرباً إرباً في أجولة تلقى في المصارف والترع أو على قوارع الطرق، مما ينهى به الأزواج والزوجات هذه العلاقة، بل حياة الآخر منها على هذه النحو المفزع البائس، بغير شفقة كانت أو رحمة تكون. وليتأمل المرء سمو الإسلام ونظراته الحانية لما يجب أن تكون عليه الحياة، فاشلة كانت أو ناجحة، وما في اتباع تعاليمه من السعادة في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ومعنى العفو أقرب للتقوى: أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق، لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعى وطبيعى، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزعجه عن المظالم والقسوة، فتكون

(١) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن»، (١/٢٥٧).

التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه»^(١).

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم لم يذكر إلا العدل والعفو في كونها أقرب للتقوى، وقد رأينا فيما مر معنى ذلك في العفو، ولعل العدل - والله أعلم - لم يذكر مقروناً بالتقوى ذاتها، بل بالقرب منها، لأن في الفضل - وهو فوق العدل - مجالاً واسعاً يكون المرء به من المتقين، فما بالك لو زادهم فوق عدله من كرمه تفضلاً، وقد سمعنا أمثلة مثل ذلك من فعله الشريف ﷺ، فقد ذكر القاضي عياض في «الشفاء»^(٢) أمثلة عديدة، منها:

عن أنس ؓ: كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة، حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك، فسكت النبي ﷺ ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده»، ثم قال: «ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟»، قال: لا، قال: «لم؟!»، قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبي ﷺ ثم أمر بأن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر.

فرأينا في الحديث الشريف عدله وفضله ﷺ، وكيف لم يحمله ظلم الأعرابي له ﷺ على أن يعامله بالمثل، بل زاد فوق العدل التفضل.

وهكذا رأينا تلك الجوانب المضيئة للتقوى، التي تجعل الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي أرقى وأعز المجتمعات التي يعيش في ربها المرء مطمئناً، يشعر بالرضا والسكينة، يفيض عليه السلام النفسى من جراء تلك المودة

(١) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/٤٠٤).

(٢) انظر الملا على «شرح الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية، بيروت،

والرحمة والتعاطف، فضلاً عما ينتظره في الآخرة من رضوان الله تعالى وحسن مثوبته.

والموضع التالي هو قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩]:

وفي سيرنا لاستكمال صورة التقوى نصل إلى النجوى، حيث أمر تعالى بأن يكون تناجى المؤمنين فيما بينهم بالبر والتقوى، فإذا كانت التقوى لها كلمتها التي ينبغي أن تقال نطقاً، وأن تمثل سلوكاً، فإنه كذلك ينبغي أن يكون تناجيهم، أى كلامهم المخصوص الذى يتسارون به بينهم ويخفونه عن غيرهم، لا بد أن يكون كذلك، وهذا أدب إسلامى رفيع أن يكون سر المرء وعلانيته برأ وتقوى، خاصة إذا كان هذا التناجى يمكن أن يكون سبباً لوقوع الريب والشك فى قلب غيره، فيقع بين المؤمنين بسبب ذلك سوء الظن المؤدى إلى التجسس المنهى عنه، وإلى وقوع البغضاء والشقاق، لتحل محل الألفة والمحبة والاجتماع، بل إن من آداب الإسلام العليا المحافظة على قلب المؤمن، وألا يصدر من أحد ما يكون سبباً لحزن أخيه وتألمه، حفظاً لشعوره ومراعاةً لنفسيته، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»، فإن ذلك يحزنه، فحفظ الإسلام حق الإنسان بهذا الإعلان الخالد، ناهيك عن شتمه وسبه والسخرية به وضربه وسجنه وتعذيبه وقتله، فإن ذلك يحزنه فلا تفعله، وإن لم يتعلق به حق، إذ ما علاقته باثنين يتناجيان ولكل

(١) رواه البخارى (٦٢٩٠)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١١/٨٢-٨٣).

ورواه مسلم (٢١٨٤)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٧/٤٢٣).

حريته، لا إن كان ذلك يجزئه، هو أخوك، حريته موقوفة عند حزنه، إن وصلت إليه. ثم انظر إلى ما في ذلك من السلام، إذ كل أحد آمن الجانب من أخيه لا ينتظر منه أدنى الشر ولا يتوقعه. وتخيل مجتمعاً قد ترك كل واحد انشغاله بغيره، فتفرغوا لهدف واحد، توجهت إليه جهودهم، وتوحدت عليه مقاصدهم، وتآلفت عليه قلوبهم، وهو كيف يترقى هذا المجتمع وينمو ويقوى ويعزز، ويصير مرهوب الجانب، مسموع الصوت، صامداً لأعنى قوة كالبنيان المرصوص.

ونعود إلى الآية الكريمة، نستوضح معانيها، حيث بدأت بالخطاب للمؤمنين: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهل هو للمؤمنين الخالص، أو للمنافقين الذين آمنوا في الظاهر؟ فإن حملنا ما تقدم من الخطاب في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى...﴾ على اليهود والمنافقين، كان الخطاب هنا لأهل الإيثار ألا يسلكوا مسلكهم، ونهياً لهم ألا يقتفوا طريقهم طريق الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾. وإن حملنا الخطاب السابق على اليهود فقط، جاز أن يكون الخاطب هنا للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم.^(١)

وإن كان الأولى أن يكون الخطاب للمؤمنين، إذ ذلك المعهود من خطاب القرآن الكريم، وكذلك لما سبق في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى﴾، وهو عام لكل من نهى عن ذلك، فشمّل اليهود والمنافقين، فلم يبق إلا أن يكون

(١) انظر الرازي «التفسير الكبير»، (٤٤٧/١٥). والألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٥، (٣٨/٢). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٢/٢٨). وابن الجوزي «زاد المسير»، (١٩٠/٨). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٩، (١٧/٢٩٤). ورجح صاحب التحرير أن الخطاب للمنافقين، وذكر أدلته، انظر (٣٢/٢٨). ولكن المذكور هو اختيار الباحث.

ذلك خطاباً للمؤمنين.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿١٠٧﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠٨﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ
الْهُدَىٰ ﴿١٠٩﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١١٠﴾ ﴾ [العلق: ٩-١٢]:

هذا هو الموضوع التالى من مواضع التقوى. فبعد أن رأينا الموضوع الأول - وهو أن الله ﷻ أهل التقوى - رأينا هنا النبى ﷺ هو الأمر بها المبلغ عن الله - سبحانه وتعالى، ولما كان - صلوات الله وسلامه عليه - إمام المتقين، لا جرم كان إمام الآمرين بها والداعين إليها، وهى سنة الأنبياء وطريقتهم جميعاً فى دعوة أقوامهم إلى الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٨] وهكذا سار على هذا الدرب جميع الأنبياء من توصية أقوامهم وأمرهم بتقوى الله تعالى، وإذا كان الأنبياء قد واجهوا من قومهم الإيذاء والعنت والمشقة فقد واجه ﷻ أعظم المشقة فى دعوة قومه إلى تقوى الله تعالى. والآية من الآيات التى تخبر بشيء مما وقع له ﷻ مع قومه. قال الألوسى فى «روح المعانى»: «لم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية فى أن العبد المصلى هو رسول الله ﷻ، والناهى هو اللعين أبو جهل»، فقد أخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷻ يصلى ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷻ وهو يصلى ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بينى وبينه لخنذاً من نار وهو لاء وأجنحة، فقال رسول الله ﷻ: «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». وفى بعض الأخبار ما ظاهره أنه حصل منه نهى لفظى^(١)، فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: كان النبى ﷻ

(١) العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٦، (٣/٣٢٨).

يصلى، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنك عن هذا؟.. الحديث.

ولننظر في تحليل الآيات:

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾: كلمة تعجيب من حال، تقال للذي يعلم أنه رأى حالاً عجيبة. واستعمل الاستفهام فيها لأن الحالة العجيبة من شأنها أن يستفهم عن وقوعها استفهام تحقيق وتثبيت لنبيها إذ لا يكاد يُصدَّق به. والرؤية هنا علمية، والمعنى أعجب ما حصل لك من العلم قال الذي ينهى عبداً إذا صلى. والمنهى عنه محذوف يغنى عنه تعليق الظرف بفعل ﴿يَنْهَى﴾، أى ينهاه عن صلاته. وأتى بصيغة المضارع في قوله ﴿يَنْهَى﴾ لاستحضار الحالة العجيبة، كأنها تقع الآن، وإلا فإن نبيه قد مضى.^(١) ولمعنى آخر وهو أن هذه الحالة عجيبة في كل زمان يمكن أن تقع، لذا فهي مذمومة تستدعى التشنيع والتبكيك في كل وقت، لكل طاغية ينهى عباد الله عن الصلاة. والأمر بتقوى الله، لذا رأينا كلمة ﴿أَرَأَيْتَ﴾ هنا متوجهة إلى غير معين كأنها لكل أحد له تمييز في كل آن ومكان.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٠/٤٤٦-٤٤٧). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٦/٥٢٠).

وقد ذكر في التحرير فائدة العدول عن التعبير بضمير الخطاب (ينهاك) إلى (ينهى عبداً)، فقال: «لأن التعجب من نفس النهى عن الصلاة بقطع النظر عن خصوصية المصلى». وقد ذكر الإمام الرازي في «التفسير الكبير» فوائد ملخصها أن التنكير في (عبداً) يدل على كونه كاملاً في العبودية، وثانيها أن هذا أبلغ في الذم، لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته، فينهى كل من يرى، وثالثها أن هذا تحذوف لكل من نهى عن الصلاة. ورد أن على ﷺ رأى أقواماً يصلون قبل العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ① عَبْدًا إِذَا صَلَّى ②﴾. وأخذ هذا الأدب أبو حنيفة ﷺ. ورابعها: أيظن أبو جهل إذا لم يسجد لى محمد ﷺ ألا يسجد لى غيره. وخامسها: تفخيم شأن النبي ﷺ كأنه مع التنكير معرف. راجع (ص٥١٨-٥١٩) لتفصيله.

يقول الأستاذ/ سيد قطب: «والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير، التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة، ولا تؤدي إلا في أسلوب الخطاب الحى، الذى يعبر باللمسات المتقطعة في خفة وسرعة! ﴿أَرَأَيْتَ﴾؟ رأيت هذا الأمر المستنكر؟ رأيته يقع؟ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ﴿؟﴾»^(١).

ولقد ذكرنا هذه المقدمة لأن قوله: ﴿إِذَا صَلَّى﴾ مرتبط بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ ﴿، كأن الصلاة هى كون المرء على الهدى أمراً بالتقوى، وقد أشار إلى ذلك الفخر الرازى، حيث أوردها على صيغة سؤال مفاده أن المذكور فى أول الآية هو الصلاة، والهدى فى فعل الصلاة، فلم أضاف إليها شيئاً ثانياً وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ ﴿، وأجاب - رحمه الله - بثلاثة أوجه، نذكر منها وجهاً واحداً، وهو:

«أنه ﷺ كان فى صلاته على الهدى وأمراً بالتقوى، لأن كل من رآه وهو فى الصلاة كان يرق قلبه فيميل إلى الإيمان، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول»^(٢).

عدنا إذاً إلى قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ ﴿ مرتبطاً بالآية قبلها، وقد اخترنا أنه النبى ﷺ^(٣)، والمعنى تعجيب آخر، أى:

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٦ /).

(٢) ذكر الرازى فى «التفسير الكبير» وجهين آخرين، وإلى مثل ذلك أشار فى «روح المعانى»، (٣٣٢-٣٣٣)، فقال: «وكان الظاهر عليه أن يذكر فى الجملة الأولى أيضاً أن يقال: رأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى، لكنه حذف اكتفاء بذكره فى الثانية، واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس، لأن الأمر بالتقوى دعوة قولية والصلاة دعوة فعلية، والفعل أقوى من القول... إلخ».

(٣) والآية محتملة لتفسير ثانٍ، انظر الألوسى «روح المعانى»، (٣٣ / ١٦)، وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٨٨٧ / ٥)، والبيضاوى «أسرار التنزيل»، (٥١١ / ٥)، والرازى «التفسير الكبير»، (١٦ / ٥٢٠).

أرأيت إن كان العبد على الهدى، أينهاه عن الهدى، وإن كان العبد آمراً بالتقوى أينهاه عن التقوى، ذلك هو الظن به، فيعجب المخاطب من ذلك، لأن من ينهى عن الصلاة وهي قربة إلى الله، فقد نهى عن الهدى ويوشك أن ينهى عن أن يأمر أحد بالتقوى. وقد عبر القرآن الكريم بـ ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى الْهُدَى﴾، لتبين شدة التمكن من الهدى، بحيث يشبه تمكّن المستعلى من المكان، وهو من الاستعلاء المجازى. وقد أشرنا إلى التفخيم في تنكير ﴿عَبْدٌ﴾ ويكون المعنى: أينهى العبد الذى هو فى النهاية من العبودية لله تعالى، والمتمكن أشد التمكن من الهدى، أينهاه عن الهدى؟ فما أعجب ذلك! أينهاه عن الأمر بالتقوى؟ فما أعجب ذلك! وفيه من التشنيع على هذا الفعل القبيح والقول الكريه ما فيه، وهو عام فى كل أحد يقول هذا القول المنكر ويفعل هذا الفعل المستقبح، وإنذار من الله تعالى كذلك لكل من يتعاطى هذا الصد عن سبيل الله تعالى أن يكون عقابه من جنس عمله فى السوء والشناعة، ولم يسكت القرآن الكريم عن هذا العذاب المنتظر والجزاء الواقع، بل صرح به فى نهاية السورة بقوله: ﴿كَلَّا لَإِن لَّمْ يَنْتَه لَنْسَفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٦﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٧﴾﴾، حيث وصفه بهذا الوصف القبيح، ثم أشار إلى أن عذابه سيطول أعلى مكان فى جبهته التى يرفعها متكبراً متشاخاً، بأن يؤخذ منها ويحجر إلى النار بشدة لا توصف، وبقسوة لا تخطر ببال، وبذلة ومهانة لا تتصور، جزاءً وفاقاً، ناصية الكاذب الخاطى المذنب الأثيم.

كل ذلك يبين لنا قيمة الأمر بالتقوى، وقيمة الأمر بها، إذ كان الناهى عنها بتلك الصفة وله تلك النهاية.

فإذا كان الناهى عن التقوى صاحب ناصية كاذبة خاطئة، فلاشك أن الأمر بالتقوى صاحب ناصية صادقة صالحة مستقيمة غير آثمة ولا مذنبه، يأمر بالتقوى، ويوجه إليها، ويدعو لها، ويوصى بها.

وتبين الآية لنا خطر الأمر بالتقوى وعظيم فضله، وأنه لا ينبغي لأهل

الإيمان أن يتخلوا عن تلك المهمة والقيام بأعبائها وتحمل تبعاتها، وعليهم أن ينتظروا من الله تعالى شيئين:

الأول: دفاع الله تعالى عنهم والقيام لهم، وأنه يحفظهم من كيد أعدائهم، ومن الشرور المحدقة بهم، كما ذكرنا ذلك في قصة أبي جهل مع النبي وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ومهما لاقوا في سبيل الله تعالى والدعوة إليه فإن العاقبة لهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الثاني: عظيم جزاء الله لهم، المقابل لجزاء الناهي عن التقوى، فإذا كان هذا له السفع في الناصية، فذلك له الإعظام والتكريم في دار الخلد، جزاءً بما كان يعمل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ آدْخُلُوْهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجرات: ٤٥-٤٦].

وتبين الآيات أن الأمر بالتقوى من وظيفة الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام، فالقائمون بذلك من أتباعهم، إذا قائمون بأعظم مهمة، متحملون لأعظم أمانة، فما أعظمهم وأعظم مهمتهم، وما أجملهم وأجمل جزاءهم، وأعجب بهم واندesh لهم، فهم في الدرجة العليا من ثناء الله عليهم.

وتشير الآيات بجلاء إلى أنه ينبغي ألا يأمر بالتقوى ولا يدعو لها إلا من تحقق بها، وتمكن منها في نفسه، فلا يقوم بإصلاح غيره إلا من أصلح نفسه واهتم بها ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، فقوله إذا هباءً لا يقوم على أساس راسخ ولا أصل ثابت، وإنما هو متاجر بالدين، يقول ما لا يفعل، فلاشك أن مثل هذا لا تؤثر دعوته، ولا تؤتي ثمرتها، ويخشى عليه في الأولى والآخرة، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لازماً على أي حال.

وتبين الآيات درجة النبي ﷺ العظيمة، ورتبته العالية في كونه أعظم من دعا

إلى تقوى الله تعالى، وتحمل في سبيل ذلك أعظم المشقات والمتاعب، كل ذلك حتى أتاه اليقين، فما أن جاء أمر الحق تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر: ٢] لم يتوان لحظة واحدة عن هذا الإنذار، إلى أن لقي الله - جل وعلا - وهو للمسلمين القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذي لا بد لهم أن يمثّلوه ظاهراً وباطناً، إن كانوا يرجون رفع رايته في الدنيا وعلو منزلتهم في الآخرة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فبينت هذه الكلمات الموجزة من كلام الله المبارك - بعد أن اتضح أن الله سبحانه أهل التقوى - لزوم الأمر بالتقوى مع التزود بزيادها، وأن الرسول ﷺ أعظم من دعا إلى التقوى، وتحمل في سبيلها. وبينت جزاء التقوى وعظمتها، وعاقبة المانعين من الأمر بها وعدم طاعتهم في ترك الأمر بها، وإحاطة الله ومنعته للدعاة لها، مهما بدا أمرهم في الدنيا على غير ذلك، وهي دعوة لأهل الإيمان في كل زمان ومكان لأن يدعو إلى الله، مهما منعهم الطغاة من ذلك ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ [العلق: ٦]، وأن يشبوا والعاقبة لهم.

كان هذا آخر الكلام على هذا الموضوع، مقصود المؤمن فيما يأتي أو يذر بل في كافة أعماله وتصرفاته ونياته وتوجهاته هو تقوى الله - تعالى -.

المطلب العاشر

التقوى أساس قبول العمل

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]:

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بتلك الآيات الكريبات السابقات، فحيث حلت التقوى في القلب والعمل من العبد فإن الله يقبل أعماله؛ لأن هذه الأعمال كذلك كانت السبب في محبة الله له، إذ لو كانت طاعته وقربانه في غير محل القبول ما وصل العبد إلى محبة الله ولا ولايته؛ أعماله مردودة لفقدتها أحد شرطى القبول - الإخلاص والمتابعة.

يقول الزمخشري في «الكشاف»: «وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم! وعن عامر أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: ما يبكيك فقد كنت كذا وكذا؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾»^(١).

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - المثل الأعلى في الفهم والعمل، لذلك ورد عنهم ما يبين قيمة التقوى، يقول الحافظ بن كثير في تفسيره: «كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «لو علمت أن الله تعالى تقبل منى سجدة واحدة أو درهماً صدقة؛ ما كان غائب أحب إلي من الموت: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾»^(٢)، ومن الجدير بالذكر أن هذا التعبير القرآني الفريد قد جاء في سياق قصة ابنى آدم، التي

(٢) جار الله محمود الزمخشري «الكشاف»، (١/٣٣٣). وقد ذكر الطبري أثر عامر هذا في تفسيره، مجلد ٤، (٦/١٢٣)، وذكر النسفي كلام الزمخشري، (١/٢٠٧)، ونقله بنصه في «روح المعاني» الألوسى، مجلد ٤، (٦/١٦٥).

(2) العلامة الشيخ محمد السفا رينى الحنبلى «نفثات صدر المكمد وقررة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، ت ١١٨٨هـ، المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ، (١/٤٦).

قصها علينا القرآن الكريم، لتبين قبول الله طاعة المتقين دون غيرهم، حيث قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]، وهذا يبين قيمة التقوى لأن أحد القربانين صار مقبولاً والآخر مردوداً، لأن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال، قال تعالى هاهنا، حكايةً عن المحق: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقال - سبحانه - فيما أمرنا من القربان بالبدن: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، والتقوى من صفات القلوب قال ﷺ: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى صدره ثلاثاً.^(١)

(١) الإمام محمد بن عمر الرازي، «التفسير الكبير»، (٥/٦٥٣).

وقد أغرب العلامة الكبير الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية، حيث ذكر في نهاية ما ذكره من أقوال قوله: «ومعنى هذا الحصر أن الله لا يتقبل من غير المتقين وكان ذلك شرع زمانهم» ا.هـ. الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/١٧٠). وما ذكرنا لكافة المفسرين غنية في الموضوع.